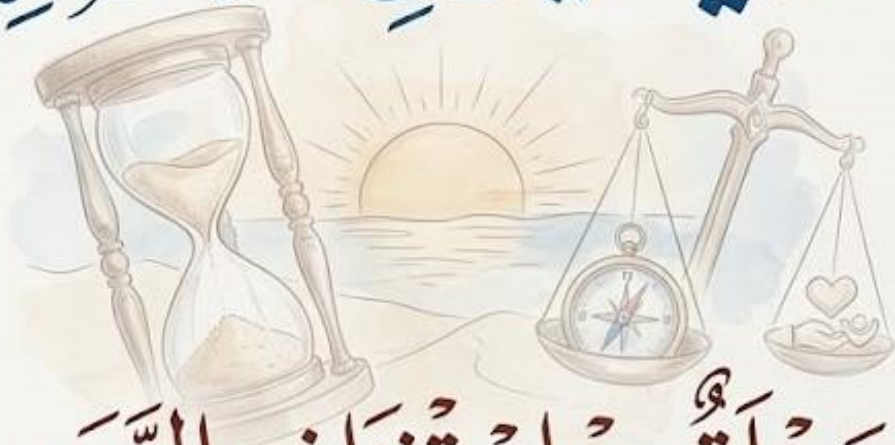


الْإِنْسَانُ فِي مِيزَانِ الْعَصْرِ



رَحْلَةٌ مِنْ اسْتِئْزَافِ الزَّمَنِ
إِلَى هَنْدَسَةِ النِّجَاةِ

مُحَمَّدُ رِزْوَانُ السَّلَامِيُّ

الْعُمُرُ الَّذِي نَخْشَرُهُ

سُورَةُ الْعَصْرِ وَهَنْدَسَةُ النِّجَاةِ مِنَ الزَّمَنِ

رداد السلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة المنهجية

حين تقف اللغة في مقام السجود أمام المعنى

ليست سورة العصر من السور التي تُقاس مساحتها بعدد كلماتها؛ فبعض الكلام يتسع في الورق ويضيق في المعنى، وبعضه يقلّ لفظه حتى يكاد يُقبض عليه في كف، ثم يفتح في الوعي آفاقاً لا تبلغ نهايتها. وسورة العصر من هذا الضرب المعجز: ثلاث آيات، لكنها حين تدخل القلب تضع العمر كله أمامه؛ ماضيه الذي انقضى، وحاضره الذي ينساب، ومستقبله الذي لا يملك عليه عهداً.

إنها لا تتحدث عن الوقت كما تتحدث كتب الإدارة عن الساعات، ولا تدعو إلى استثمار الزمن بالمعنى الأداتي الذي يجعل الإنسان آلة أكثر إنتاجاً؛ بل تهبط إلى الطبقة الأعمق من السؤال: ما قيمة الإنتاج إذا ضاعت الجهة؟ وما جدوى السرعة إذا كان الطريق خطأ؟ وهل يربح الإنسان حين يملأ أيامه بالأعمال، بينما تفرغ روحه من المعنى؟

لقد جعلت السورة الزمن شاهداً، والإنسان متهمًا بالخسران، ثم فتحت له باب النجاة في أربعة أركان متماسكة: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. وبذلك لم تعد قضية الوقت قضية تنظيم، بل قضية مصير؛ ولم يعد العمر عددًا من السنوات، بل رأس مال أخلاقي وروحي يُنفق في كل لحظة، إما أن يتحول إلى ربح باق، وإما أن يذوب في العدم الظاهر حتى يفاجأ صاحبه بحقيقة الخسارة.

وهذا الكتاب محاولة للاقترب من هذه السورة اقترباً تدبرياً أدبياً، يجمع بين الإصغاء إلى البيان القرآني، والنظر في أعماق النفس الإنسانية، وتأمل امتداد الهداية إلى حياة الإنسان المعاصر. وهو لا يزعم أنه تفسير مستوعب للسورة، ولا يقصد إلى مزاحمة كتب التفسير التي حفظت دلالات الألفاظ وأقوال السلف ومسالك العلماء؛ بل ينطلق من ذلك الأصل، ثم يحاول أن يفتح للنص نافذةً على القلب المعاصر، من غير أن يفصل التأمل عن ظاهر الآيات أو يحمل ألفاظها ما لا تحتمل.

فالفرق كبير بين التأمل الذي يولد من النص، والتأويل الذي يفرض نفسه عليه. الأول يقف عند باب القرآن متلقياً، يصغي إلى اللغة والسياق والنظم، ثم يتتبع ما توقظه الدلالة من أسئلة النفس والحياة. أما الثاني فقد يأتي إلى الآية بفكرة مكتملة، ثم يبحث في ألفاظها عما يزينها. ومنهجنا هنا أن تظل الآية هي الأصل، وأن يكون التأمل فرعاً عنها، وأن تخدم الصورة الأدبية المعنى ولا تحجبه.

ولهذا تبدأ القراءة من ظاهر اللفظ: من القسم في (وَالْعَصْرِ)، ومن التوكيد في (إِنَّ) واللام، ومن العموم في (الْإِنْسَانَ)، ومن الإحاطة التي يصورها حرف (فِي)، ومن اتساع التنكير في (خُسْرٍ)، ومن التحول الذي تحدثه (إِلَّا)، ومن اقتران الإيمان بالعمل، ثم من التبادل الذي تنطوي عليه صيغة (تَوَاصَوْا)، ومن استقلال الحق والصبر بإعادة الفعل مع كل منهما.

غير أن النظر البياني في هذا الكتاب لا يقف عند حدود الصناعة اللغوية. فالقرآن لا يكشف جمال التعبير لنقف معجبين عند البناء، بل ليعبر بنا جمال البناء إلى جلال الهداية. ليست الغاية أن نقول: ما أبلغ هذا الحرف، ثم نمضي؛

وإنما أن نسأل: ماذا يصنع هذا الحرف في تصورنا؟ كيف ينقلنا قوله تعالى: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ من رؤية الخسارة عارضاً خارجياً إلى رؤيتها محيطاً يغمر الإنسان؟ وكيف تجعلنا كلمة ﴿إِلَّا﴾ نشعر أن النجاة ليست امتداداً طبيعياً للغفلة، بل انقلاباً كاملاً في وجهة العمر؟

إن البيان القرآني ليس زينةً تضاف إلى الحقيقة؛ إنه الطريقة التي تدخل بها الحقيقة إلى القلب.

قد يكون المعنى في صورة مجردة معلوماً، لكن النظم يمنحه قوته وحركته وظلاله. كل إنسان يعرف أن الزمن يمضي، غير أن قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ينقل هذه المعرفة من برودة المعلومة إلى رجفة الشهود؛ كأن الوقت الذي اعتاده الإنسان وقف أمامه فجأة شاهداً على ما صنع فيه.

وسيحضر الجانب النفسي في هذه القراءة حضوراً مركزياً؛ لأن الخسران لا يبدأ دائماً في الحسابات الظاهرة، بل قد يبدأ داخل النفس قبل أن يظهر في الحياة. يبدأ حين يفقد الإنسان مركزه، ويعيش موزعاً بين توقعات الآخرين، أو حين يركض خلف الزمن حتى يفقد القدرة على تذوق اللحظة، أو حين يملأ يومه بالحركة ليهرب من السؤال عن غايته.

فالإنسان المعاصر لا يعاني قلة الوسائل، بل وفرتها التي لا تهديه بالضرورة إلى معنى.

إنه أسرع من أسلافه في الوصول، لكنه أشد حيرةً في اختيار الجهة. يستطيع أن يتواصل مع أبعد الناس، بينما يعجز أحياناً عن الوصول إلى نفسه. يحمل أدوات قياس الوقت في يده، لكنه يشعر أن عمره ينساب منه بلا بركة. ومن

هنا تلتقي سورة العصر بقلقه في أعرق مواضعه: لا لتقدم له حيلةً لزيادة الإنتاج، بل لتعيد بناء علاقته بالزمن وبنفسه وبالله.

سيظهر الإيمان، في ضوء السورة، لا باعتباره انسحابًا نفسيًا من الواقع، بل استردادًا لمركز الإنسان المفقود. فالقلب حين يؤمن لا تُعفى حياته من الألم، لكنه لا يعود يتألم في كون بلا معنى. ولا تتوقف مفاجآت القدر، لكنه يعرف أن فوق اضطراب الحوادث حكمةً لا يحيط بها، ورحمةً لا ينقطع رجاؤه منها، وعدلاً لا تضيع في ميزانه مظلمة.

وس يظهر العمل الصالح بوصفه خروج الإيمان من خفاء الضمير إلى شهادة الحياة؛ فليس الإيمان خاطراً جميلاً يقيم في القلب من غير أن يعيد تشكيل اليد واللسان والموقف. وإذا لم يتحول اليقين إلى أمانة، والرحمة إلى إحسان، والعدل إلى موقف، ظل الإيمان دعوى لم تكتمل ثمرتها.

ثم تنتقل السورة من الفرد إلى الجماعة: (وَتَوَاصَوْا). وهنا لا يعود الناجي فرداً أغلق عليه باب روحه، بل يصبح عضواً في رابطة أخلاقية حية. إنه يذكر ويذكر، يحمل ويحمل، يقوي غيره ويعترف بحاجته إلى من يقويه. فالحق أثقل من أن تحمله عزيمة منفردة دائماً، والطريق أطول من أن يقطعه الإنسان بلا رفيق.

وسنحاول في هذا الكتاب أن نفهم الغربة الإيمانية فهماً متوازناً. فليست كل مخالفة للناس حقاً، ولا كل عزلة فضيلة، ولا كل شعور بالتفرد دليلاً على الاستقامة. الغربة المحمودة هي غربة الوفاء للحق حين يشيع الخسران، مع

بقاء الرحمة بالخلق والتواضع لهم. المؤمن لا يترفع على الغارقين، بل يتذكر أن نجاته هداية من الله، وأن من شكر النور أن يمدّه إلى غيره.

أما الصبر فلن يُقرأ بوصفه خمولاً أو إذعائاً للظلم، بل قوة تحفظ الحق من الانهيار تحت ضغط الزمن. فالصبر الذي تعطفه السورة على الحق لا يمكن أن يكون تعطيلاً له؛ إنه الثبات عليه، واحتمال كلفته، ومقاومة الرغبة في استعجال الثمرة أو بيع المبدأ طلباً للراحة.

وتستعين هذه القراءة باللغة الأدبية لا لتزاحم جلال القرآن، فبلاغة البشر لا تداني كلام الله، وإنما لتحاول نقل أثر المعنى في النفس. الصورة هنا خادمة للفكرة، والمجاز طريق إلى تقريب التجربة، والسرد محاولة لجمع أجزاء الرؤية في وجدان واحد. وكلما بدا اللفظ البشري مزهواً بنفسه على حساب الآية، فقد أخطأ مقامه؛ فاللغة في حضرة القرآن لا ترتفع لتستعرض، بل تصل إلى مقام السجود أمام المعنى.

وقد تجنّبنا أن نعامل السورة معاملة النص الذي استنفدت دلالاته بما قيل فيه من قبل؛ فالقرآن باقٍ، وأحوال الإنسان تتجدد، وكل جيل يدخل إليه حاملاً أسئلته وجراحه. غير أن تجدد الأسئلة لا يعني تبدل حقائق الوحي، بل يعني اكتشاف وجوه جديدة من حاجتنا إليها. فالقرآن لا يحتاج إلى أن يعاد تشكيله كي يصبح معاصراً؛ الإنسان المعاصر هو الذي يحتاج إلى أن يعاد تشكيله بالقرآن.

هذا الكتاب، إذن، ليس حديثاً عن ثلاث آيات نقرأها ثم نغلق المصحف، بل محاولة لأن نرى أنفسنا داخلها: أن نسمع القسم ونحن نراقب أيماناً، وأن

نشعر بعموم الحكم قبل أن نستعجل وضع أنفسنا في الاستثناء، وأن نمتحن إيماننا بأعمالنا، وأعمالنا بميزان الحق، وثباتنا بمقدار ما نصبر على كلفة الطريق.

فالسؤال الذي تحمله سورة العصر ليس: هل نحفظ كلماتها؟ بل: هل أعادت هذه الكلمات ترتيب أعمارنا؟

وليس: هل نعرف أركان النجاة؟ بل: هل صرنا بعضاً من معناها؟

إننا لا ندخل هذه السورة لنصف الزمن من بعيد، بل لنقف أمام محكمة العمر. ولا نقرأ الخسران لنغرق في اليأس، بل لنعرف مقدار حاجتنا إلى الاستثناء. ولا نتأمل النجاة كي نطمئن إلى أسمائنا وانتماءاتنا، بل كي نمتحن حقائق الإيمان والعمل والحق والصبر في أنفسنا.

وبين أول حرف في (وَالْعَصْرِ) وآخر حرف في (الصَّبْرِ) تمتد قصة الإنسان كلها: يولد داخل الزمن، ويتعرض للخسر، ثم يُفتح له باب الإيمان، ويُطلب منه أن يجعل إيمانه عملاً، وعمله رسالةً، ورسالته صبراً حتى نهاية الطريق.

تلك هي الرحلة التي يحاول هذا الكتاب أن يبحر فيها: رحلة العمر الذي ينقص في الظاهر، ويمكنه أن يزداد في الميزان؛ والعابر الذي كُتب عليه الفناء، لكنه يستطيع أن يودع في فناءه أثراً لا يفنى.

التمهيد

سورة العصر: خريطة الوجود في ثلاث آيات

ثمة سور يفتح لك القرآن فيها مشهداً من التاريخ، وسور يأخذك إلى آفاق الكون، وسور تفصل أحكام الحياة؛ أما سورة العصر فتقف بالإنسان أمام الهيكل الكلي لوجوده: وقتٌ محدود، وخطرٌ محيط، وطريقٌ واحد للنجاة.

إنها لا تبدأ باسم الإنسان، بل بالوعاء الذي يحتوي حياته: ﴿وَالْعَصْرِ﴾. فقبل أن يُسأل المرء ماذا فعل، يُلفت إلى المادة التي فعل بها كل شيء. لا عمل خارج الزمن، ولا توبة، ولا غفلة، ولا محبة، ولا ظلم، ولا إحسان. العمر هو الميدان الذي تتحول فيه النيات إلى مصائر.

ثم يأتي الحكم: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾. وبين القسم وجوابه صلة محكمة؛ فالإنسان خاسر لأن الزمن الذي يشكل رأس ماله لا يتوقف عن النقصان.

ولو كان العمر مالا ثابتاً يستطيع الاحتفاظ به حين لا يتاجر، لأمكن أن يقف محايداً؛ لكنه مال يذوب في كل حال. إن لم يشتر به ما يبقى، ذهب من غير عوض.

ومن هنا يبدو البناء العام للسورة كحركة تتدرج من الخارج إلى الداخل، ثم تعود من الداخل إلى المجتمع:

- العصر: إطار الوجود الإنساني.

- الخسر: المصير العام داخل هذا الإطار.

- الإيمان: إعادة بناء القلب.

- العمل الصالح: ترجمة البناء الداخلي إلى حياة.

- التواصي بالحق: إقامة المرجع في الجماعة.

- التواصي بالصبر: حماية الطريق من الانقطاع.

ليست هذه موضوعات متجاوزة جُمعت في سورة قصيرة، بل حلقات تتولد إحداها من الأخرى. فالزمن المنقضي يكشف الخسران، والخسران يستدعي النجاة، والنجاة تبدأ بالإيمان، والإيمان الصادق يثمر العمل، والعمل يحتاج إلى حق يوجهه، والحق يحتاج إلى صبر يحمله حتى النهاية.

إن حذف أي ركن يخلّ بالبناء كله.

فالإيمان بلا عمل قد يتحول إلى دعوى لا يشهد لها الواقع. والعمل بلا إيمان يفقد صلته بالمقصد الأخروي، وقد تستولي عليه الأهواء أو صناعة السمعة. والتدين الفردي بلا تواصٍ يترك المجتمع للباطل، ثم لا يلبث الباطل أن يحاصر الفرد نفسه. والحق بلا صبر يبقى فكرةً حسنة تنهزم أمام أول امتحان. أما الصبر بلا حق فقد يصبح إصرارًا طويلاً على طريق خاطئ.

ولهذا يمكن النظر إلى السورة باعتبارها هندسةً للإنسان الناجي. فالنجاة ليست شعورًا داخليًا مجردًا، ولا إنجازًا خارجيًا منفصلًا عن الروح، ولا شعارًا جماعيًا، ولا قدرةً نفسية عمياء؛ إنها اجتماع القلب العامل، والعمل المهتدي، والجماعة المتناصرة، والإرادة الصابرة.

ويبدو لافتًا أن السورة تبدأ بالمفرد العام: (الْإِنْسَانَ)، ثم تنتقل إلى الجمع: (الَّذِينَ آمَنُوا)، (عَمِلُوا)، (تَوَاصَوْا). يدخل الإنسان حكم الخسر بوصفه فردًا من الجنس البشري، لكنه يظهر في طريق النجاة داخل جماعة مؤمنة. وكأن النجاة تبدأ بقرار شخصي لا ينوب فيه أحد عن أحد، ثم تنمو في صحبة تمنع الفرد من أن يُترك وحيدًا أمام ضغط العالم.

فالإنسان يُحاسب وحده، لكنه لا يُطلب منه أن يعيش وحده.

إنه مسؤول عن قلبه، لكنه مسؤول أيضًا عن الكلمة التي قد تحيي قلب غيره. يحمل عمله في صحيفته، لكنه يعيش داخل شبكة من التأثير المتبادل؛ يرفع الآخرين أو يثقلهم، يذكرهم أو يغريهم بالغفلة، يثبتهم أو يضيف إلى ارتباكهم.

ومن أسرار ترتيب السورة أن التواصي لم يأت قبل الإيمان والعمل. فالذي لم يبين في نفسه أصل الحق قد تتحول وصيته إلى سلطة على الآخرين، والذي لا يشهد عمله لمعناه قد تفقد كلماته مصداقيتها. تبدأ الدعوة من القلب، وتعبر الجوارح، ثم تصل إلى الناس.

غير أن هذا الترتيب لا يعني انتظار الإنسان حتى يبلغ الكمال قبل أن ينصح؛ فالكمال البشري لا يُبلغ. وإنما يعني ألا يجعل انشغاله بعيوب الناس وسيلةً للهروب من إصلاح نفسه، وأن يدخل في التواصي بوصفه شريكًا محتاجًا إلى الحق، لا قاضيًا متعاليًا على الخلق.

وفي بناء السورة مقابلة خفية بين تيارين: تيار الزمن الهابط بالإنسان نحو النقص، وتيار الإيمان الصاعد بعمله نحو البقاء. كل لحظة تأخذ من جسده، لكنه يستطيع أن يضع فيها ما يزيد روحه وميزانه. العصر يستهلك المادة،

والإيمان يستخرج منها المعنى. وبذلك لا ينجو المؤمن من مرور الزمن؛ بل ينجو بمروره الصحيح فيه.

إنه لا يوقف النهر، وإنما يتعلم كيف يعبره.

ولذلك لا تعلّمنا سورة العصر أن نخاف الساعة في ذاتها، بل أن نخاف الفراغ الذي نسمح لها بحمله بعيدًا. فالزمن لا يظلم الإنسان، ولا يجبره على الخسران؛ إنه يكشف اختياراته. والساعة الواحدة قد تكون عند إنسان بابًا إلى ربح عظيم، وعند آخر حفرةً ألقى فيها جزءًا من عمره.

ويبلغ إحكام السورة ذروته في خاتمتها: (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ). فالصبر هو الخُلُقُ الزمني بامتياز؛ لا يظهر في لحظة منفردة، بل في الامتداد. قد يعرف الإنسان الحق في لحظة، ويتحمس للعمل في لحظة، لكن صدق الطريق لا ينكشف إلا حين يطول الزمن وتكرر المحن ويبطئ الحصاد.

بدأت السورة بالزمن الذي يضغط الإنسان، وانتهت بالقوة التي تمكّنه من الثبات تحت ضغطه. كأن العصر هو السؤال، والصبر آخر الجواب.

وبينهما يقف الإيمان ليمنح العمر معناه، والعمل ليمنحه أثره، والحق ليمنحه جهته.

هذه هي الخريطة التي ستسير عليها فصول الكتاب:

في الفصل الأول نقف مع الزمن قبل أن ننظر إلى الإنسان، ونتأمل سر القسم بالعصر وقلق الكائن الذي يرى عمره منسبًا ولا يستطيع الإمساك به.

وفي الفصل الثاني ندخل إلى صورة الخسران: كيف تحاصر الخسارة الإنسان، وكيف تنتكر أحيانًا في هيئة نجاح، وكيف يمكن أن يملك المرء أشياء العالم بينما يفقد نفسه.

وفي الفصل الثالث نصل إلى عتبة الاستثناء؛ حيث يعيد الإيمان بناء المعنى، ويخرج العمل الصالح بذلك المعنى من القلب إلى الواقع.

وفي الفصل الرابع نرى النجاة وهي تتجاوز الفرد إلى الجماعة، فيتوأسى المؤمنون بالحق الذي يحدد الوجهة، وبالصبر الذي يحفظهم عليها.

وليس المقصود أن نخرج من هذه الرحلة بمعلومات أكثر عن السورة وحدها؛ بل أن نخرج بسؤال أكثر إلحاحًا عن أنفسنا. فقد يفهم الإنسان هندسة النجاة ثم يبقى خارجها، كما قد يحفظ خريطة الطريق ولا يخطو خطوة واحدة.

المعرفة هنا باب، لا نهاية. والدهشة بالبيان ينبغي أن تفضي إلى الخضوع لله، وإلا تحولت الآية إلى متعة لغوية عابرة، بينما جاءت لتعيد تشكيل المصير.

سورة العصر لا تطلب وقتًا طويلاً لقراءتها، لكنها تطلب عمرًا كاملاً لتحقيقها.

الفصل الأول

وَالْعَصْرِ... حين يُقسم الله بما ينساب من أيدينا

ليس في حياة الإنسان شيء يملكه كاملاً ويفقده كاملاً في اللحظة نفسها كالوقت. فاللحظة التي يقول عنها: «هي لي» لا تكاد تستقر في فمه حتى تصير من ماضيه، وكأن الزمن لا يدخل ملك الإنسان إلا من باب الخروج، ولا يُعطاه إلا وهو يُستردّ منه. نحن لا نمسك الوقت؛ نحن نعبره، أو لعلّ الأدق أن نقول: إن الوقت هو الذي يعبر بنا، حاملاً من أجسادنا شيئاً، ومن أحلامنا شيئاً، ومن أعمارنا شيئاً، حتى نصل إلى نهاية الطريق وقد تركنا أنفسنا موزعةً على أيام مضت، لا نستطيع استدعاء واحد منها ليعود كما كان.

ويعيش الإنسان المعاصر مفارقةً لم يعرفها أسلافه بهذه الحدة: لقد اخترع من الأدوات ما يختصر به المسافات، لكنه لم يستطع أن يوسّع لحظةً واحدة من عمره. أسرع في السفر، وأسرع في التواصل، وأسرع في إنجاز الأعمال، ثم اكتشف — متأخراً — أن السرعة لم تمنحه وقتاً زائداً، بل جعلته أكثر شعوراً بأن الوقت يطارده. كان يظن أن الآلة ستمنحه فراغاً، فإذا بها تملأ فراغه بمزيد من المطالب؛ وكان يرجو أن تخفف عنه أعباء الحياة، فإذا بها تفتح أمامه أبواباً لا تنتهي من الأعمال والإشعارات والمواعيد والرسائل.

صار يحمل الساعة في معصمه، والهاتف في يده، والتقويم في جيبه، ومع ذلك لا يدري أين ذهب يومه.

إنه يعرف الوقت بالدقيقة، لكنه لا يعرفه بالمعنى. يقيسه، ولا يعيشه. يجزّئه إلى ثوانٍ، ثم يتركها تتساقط من بين أصابعه بلا ثمرة. كأن الحضارة قد علّمته كيف يحسب الزمن، ولم تعلّمه كيف يحفظ العمر؛ وكيف يربح السرعة، ولم تعلّمه إلى أين ينبغي أن يذهب.

ومن هنا ينشأ ذلك القلق الخفي الذي يلزم الإنسان الحديث. إنه لا يخاف الموت وحده، بل يخاف أن يصل إليه قبل أن يبدأ حياته التي ظل يؤجلها. يخاف أن يفتح عينيه ذات صباح فيجد أن السنوات التي كان يظنها مقدمة لحياته قد كانت هي الحياة نفسها؛ وأن الأيام التي كان يعبرها في انتظار يوم أجمل لم تكن ممراً إلى العمر، بل كانت العمر.

يقول لنفسه: حين تنتهي هذه الأزمة سأعيش. حين أبلغ هذه المنزلة سأهدأ. حين أجمع هذا المال سألتفت إلى روعي. حين يخف الزحام سأعود إلى نفسي. لكنه كلما خرج من باب دخل في آخر، وكلما بلغ محطة لمح أمامه محطة أبعد. وهكذا يمضي عمره مؤجّلاً إلى موعد لا يأتي، كأن الحياة وعدٌ سيقع غداً، لا أمانةٌ تجري الآن.

إن أكثر الناس لا يضيّعون أعمارهم لأنهم قرروا إضاعتها، بل لأنهم لم يشعروا أنها تضيع. فالخسائر الكبيرة لا تبدأ دائماً بانهايار صاحب؛ قد تبدأ بدقائق صغيرة لا يلتفت إليها أحد، ثم تتجمع كما تتجمع قطرات الماء في صدع خفي، حتى يسقط الجدار كله. لا يفقد الإنسان عمره دفعةً واحدة، وإنما يفقده يوماً يوماً، ويموت فيه شيءٌ بعد شيءٍ، بينما هو منشغل بتأجيل حياته.

ولأن الزمن لا يُرى، يهون فقده على النفس. لو أن الإنسان كان يرى ساعةً من عمره تغادره في صورة جوهرة تسقط من يده، لارتجف لكل ساعة؛ لكنه يراها أرقامًا تتبدل على وجه الساعة، وشمسًا تميل نحو الغروب، وتقويماً تُنزع أوراقه، فلا يشعر أن الذي يتناقص ليس الورق، بل هو.

كل شيء إذا ذهب قد يُستدرك بشيء من جنسه: المال يعوّض بمال، والمنصب قد يعقبه منصب، والبيت يُبنى بعد هدمه، والطريق يُعاد بعد فواته؛ أما الزمن فلا يعود منه شيء. قد تعود إلى المكان نفسه، وتجلس في المقعد نفسه، وتلتقي الوجوه نفسها، لكن اللحظة الأولى لن تعود؛ لأن الزمن لا يكرر نفسه، وإنما يمنحك مشهداً يشبه المشهد، وأنت فيه إنسان آخر.

ولهذا كان الحنين مؤلماً. إننا لا نشتاق إلى الأماكن وحدها، بل إلى النسخ القديمة من أنفسنا التي تركناها هناك.

نعود إلى بيت الطفولة، فنجد الجدران قائمة، ولكن الطفل الذي كان يركض بينها قد غاب. نرى شجرةً كنا نعرفها، وطريقاً سلكناه، ونافذةً أطللنا منها، فتنهض فينا حياةٌ كاملة لا سبيل إلى استرجاعها. عندئذ نفهم أن الماضي ليس بلاداً بعيدة يمكن السفر إليها؛ إنه باب أُغلق من الداخل.

في قلب هذا الوجود المنساب، وفي مواجهة إنسان غافل عن الشيء الذي يحمله إلى نهايته، تأتي الكلمة القرآنية قصيرة، مهيبّة، قاطعة: (وَالْعَصْرِ).

كلمة واحدة، ولكن وراءها هدير الأعمار كلّها.

يقسم الله بالعصر، فيتوقف جريان اللحظة في الوعي، وإن لم يتوقف في الوجود. كأن القسم ينادي الإنسان الراكض: قف قليلاً، وانظر إلى الطريق الذي يركض بك. أنت مشغول بما يحدث في الزمن، لكنك غافل عن الزمن نفسه؛ تراقب الحوادث التي تمرّ فيه، ولا تراقب الوعاء الذي يحملها جميعاً ثم يمضي بها وبك.

والله سبحانه يقسم بما شاء من خلقه، فيلفت بالقسم إلى عظمة المقسم به ودلالته، وإلى جسامة الحقيقة التي ستأتي بعده. وليس القسم هنا تزييناً للكلام، تعالى كلام الله عن ذلك، وإنما هو إيقاظٌ للوعي من غفلته؛ لأن بعض الحقائق شديدة القرب حتى لا نراها، مألوفةٌ حتى تفقد قدرتها على إدهاشنا. والزمن من أشد الأشياء حضوراً، ومن أشدها خفاءً: نحن فيه دائماً، ولهذا قلّما نقف لنراه.

لقد أقسم القرآن بالفجر، والضحى، والليل، والشمس، والقمر، وكلها وجوهٌ كونية للزمن أو علاماتٌ ظاهرة على حركته. لكن القسم بالعصر يجمع الإحساس كله في لفظة موحية: زمنٌ يتحرك، ونهارٌ ينحدر، وعمرٌ يُعصر حتى يخرج مكنونه، وحضاراتٌ تنشأ ثم تغيب، وأجيالٌ تتسلم الوجود لحظةً قبل أن تسلمه إلى من بعدها.

وقد حمل لفظ (العصر) في كلام المفسرين معاني متقاربةً تتسع للدهر، وللزمن، ولوقت العصر المعروف، وقيل غير ذلك. وليس المقصود أن تُذاب هذه الأقوال في معنى لغوي واحد، بل أن ندرك أن اللفظة القرآنية تضعنا أمام حقيقة الزمن في جلالها واتساعها؛ ذلك المسرح الذي تقع عليه قصة الإنسان كلها، من أول شهقة إلى آخر زفرة.

وإذا كان المراد وقت العصر، فإن له في النفس رهبةً خاصة. إنه ليس أول النهار حيث تبدو الأشياء وليدةً ممتلئةً بالوعد، ولا هو الليل بعد أن أُسدل الستار؛ إنه لحظة الانحدار التي تكون فيها الشمس ما تزال مضيئة، لكنها تمضي نحو المغيب. الضوء موجود، غير أن الرحيل قد بدأ. وهذا أشبه بحال الإنسان في الدنيا: يعيش، ويعمل، ويأمل، لكن شمس عمره لا تقف في كبد السماء؛ إنها تميل، وإن لم يلحظ ميلها.

في الصباح يتهيا الإنسان للبدء، أما في العصر فيبدأ الحساب الصامت: ماذا صنعتَ بنهارك؟ كم بقي منه؟ وهل يكفي الباقي لما لم تتجزه؟ إنه وقتٌ يجمع النور إلى الإحساس بالنهاية؛ ولذلك يوقظ في القلب شعورًا عجيبًا، كأن النهار وهو يشيخ أمام عينيك يريك صورةً مصغرةً من عمرك.

ولعل من أعمق ما يوحي به القسم أن الزمن ليس خلفيةً محايدةً لحياة الإنسان، بل شاهدٌ عليه. فكل يوم يمرّ لا يذهب فارغًا؛ إنه يحمل معه صورةً مما صنعناه فيه. الزمن لا يصنع الخير ولا الشر، لكنه يكشف ما صنع الإنسان بنفسه. هو الوعاء الذي يملؤه المرء بطاعته أو غفلته، بحضوره أو ضياعه، ثم يُغلق الوعاء ويُرفع، فلا يستطيع أن يعود ليغير ما وضع فيه.

كل لحظة صفحة، غير أنها صفحة لا تُمحي بعد طيّها. وكل يوم خزينة، لكنها إذا أغلقت لم يُعثر على مفتاحها في الأرض. وما نسميه «ماضيًا» ليس عدمًا؛ إنه جزء من قصتنا ثبت في علم الله، ومضى بما حمل من نية وعمل وأثر. نحن ننساه، لكنه لا يضيع. وقد نتجاوز الحادثة، لكنها لا تتجاوز ميزانها.

ولهذا لا يُقاس العمر بعدد السنوات وحده. قد يعيش إنسان أعوامًا طويلة، لكنها تمر به كما يمر الماء على حجر لا ينبت؛ وقد يعيش آخر زمنًا أقصر، لكنه يضغط في أيامه من المعنى ما يجعلها أوسع من أعمار كاملة. فالعمر الحقيقي ليس المسافة بين الميلاد والموت فحسب، بل مقدار الحق الذي عرفه الإنسان، والخير الذي أقامه، والأثر الذي تركه، والقرب الذي حصله.

ليست البركة أن يُزاد في عدد الساعات؛ فالساعات متساوية في ظاهر الحساب. البركة أن تتسع الساعة لما لا تتسع له ساعات، وأن يُفتح للإنسان في لحظته بابٌ من الحضور والصدق والفهم، فيعيشها بكليته، لا بجسده وحده. كم من إنسان امتلك يومًا كاملاً ولم يحضر فيه لحظة، وكم من إنسان كانت له لحظة صدق واحدة فغيّرت وجه حياته كلها.

وهنا ينكشف الفرق بين الوقت والعمر. الوقت مادةٌ مشتركة بين الناس؛ لكل واحد منهم ليل ونهار، وأسابيع وأعوام. أما العمر فهو ما صنعه كل إنسان بهذه المادة. الوقت يُمنح للجميع، لكن العمر يؤلّف من الاختيارات. وقد يتساوى رجلان في عدد السنين، وبين حياتيهما من البعد كما بين كتاب مكتوب وصفحات بيضاء.

من الناس من يخرج من يومه وقد زاد رقمًا في التقويم، ولم يزد شيئًا في نفسه. ومنهم من يخرج منه وقد انكسر فيه وهمٌ، أو وُلد فيه يقين، أو جُبر قلب، أو نُصر حق، أو عُرِفَت آية، أو دُمعت عين من خشية الله، فكان يومه لبنَةً في بناء أبدي. الأول استهلك الزمن، والثاني حوَّله إلى معنى.

ولذلك لا يسأل القرآن الإنسان: كم مرّ عليك من الوقت؟ بل تضعه هداية الوحي أمام سؤال أعمق: ماذا مرّ منك إلى الأبد؟

قد يحسب المرء أنه يقتل الوقت حين يبده، وما قتل وقتاً قط؛ لأن الوقت لا يموت، بل هو الذي يقتل جزءاً من عمره. العبارة الشائعة تخفي الحقيقة: نحن لا نقتل الفراغ، وإنما نسمح للفراغ أن يقطع منا شيئاً لا يعود. الزمن لا يتضرر بضياعننا؛ الشمس ستشرق، والليل سيأتي، والفصول ستتعاقب. الذي يُصاب بالخسارة هو الإنسان.

ومن هنا كانت (وَالْعَصْرِ) تمهيداً بالغ الإحكام لقوله تعالى: (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ). فالعلاقة بين القسم وجوابه ليست علاقةً خارجية؛ الزمن نفسه هو الميدان الذي يقع فيه الخسران. الإنسان لا يخسر عمره في مكان آخر، بل يخسره داخل هذا الجريان الصامت. كل لحظة تنتضي تأخذ من رأس ماله، سواء أخرج منها بربح أم خرج منها صفر اليدين.

والتاجر يعرف خسارته إذا نقص ماله، والمريض يعرف خسارته إذا ضعفت صحته، وصاحب المنصب يعرفها إذا زالت منزلته؛ لكن الإنسان لا يعرف بسهولة خسارة العمر، لأن ما يفقده لا يصدر صوتاً وهو يغادره. لا يسمع وقع السنوات وهي تسقط من حياته. يستيقظ فيجد شعرةً بيضاء، أو وجهًا غادرته نضارة قديمة، أو صديقاً سبقه إلى الرحيل، فيدرك فجأةً أن الزمن كان يعمل فيه بصمت.

إن الساعة لا تقول لك: لقد أخذت منك جزءاً من حياتك. إنها تتحرك فحسب. والشمس لا تنادي عند غروبها: لقد نقص يومٌ من رصيدك. إنها تغيب فحسب.

والتقويم لا يصرخ حين تُنتزع ورقته: إن هذا التاريخ لن يعود. إنه يتركك تكتب عليه مواعيدك، بينما هو يكتب فيك آثار الرحيل.

وهذه هي المأساة: أن الزمن شديد الصمت، والإنسان شديد الضجيج. يعلو ضجيج رغباته حتى لا يسمع صوت عمره وهو ينقص. ينشغل بما سيحصل عليه، فلا يرى ما يفقده في سبيل ذلك. يكدح ليملك أشياء كثيرة، ثم يكتشف أنه منحها أثمن ما يملك: منحها حياته.

وليس ذمُّ الانشغال دعوةً إلى البطالة، ولا التأمل في الزمن انسحابًا من عمارة الأرض؛ فالسورة نفسها ستجعل العمل الصالح ركنًا من أركان النجاة. إنما القضية: هل يعمل الإنسان وهو يعرف لماذا يعمل؟ هل تتحرك يداه وقلبه حاضر؟ هل يبني في الدنيا دون أن تهدم الدنيا فيه معنى الآخرة؟ هل يستخدم الوقت، أم يسمح لأشغاله أن تستخدمه؟

ليس الخطر في كثرة الأعمال وحدها، بل في فراغها من الوجهة. قد يكون المرء نشيطًا جدًا وهو يمضي في الاتجاه الخطأ، وعندئذ لا تنقذه سرعته، بل تزيده بُعدًا. وقد يملأ جدولته بالمواعيد حتى لا يجد فيه موضعًا للسؤال الذي يحدد قيمة المواعيد كلها: إلى أين؟

إن أعظم خدع الحياة أن يبدو الامتلاء نقيضًا للفراغ. قد يمتلئ اليوم بالأعمال، وتبقى الروح فارغة. وقد يزدحم الهاتف بالأسماء، ويبقى القلب وحيدًا. وقد تتراكم الإنجازات حول الإنسان، بينما يتناقص الإنسان في داخله. ليست كل حركة حياة، ولا كل وصول نجاة، ولا كل ازدحام امتلاءً.

ومع ذلك يهرب كثير من الناس من الفراغ؛ لا لأن الفراغ مؤلم في ذاته، بل لأنه يكشفهم لأنفسهم. ما إن يسكن الضجيج حتى يسمع المرء الأسئلة التي ظل يؤجلها: من أنا؟ ماذا أريد حقاً؟ لماذا لا أشعر بالطمأنينة مع أنني حصلت على أشياء كثيرة؟ ماذا لو انتهى الطريق قبل أن أصلح قلبي؟ ماذا سيبقى مني إذا سقطت الألقاب والممتلكات والصور التي صنعتها أمام الناس؟

ولهذا يمد الإنسان يده إلى هاتفه كلما خلا بنفسه، كأنه يخشى أن يلتقي بها. ينتقل من خبر إلى خبر، ومن صورة إلى صورة، ومن حديث إلى حديث، لا بحثاً عن شيء محدد، بل فراراً من الصمت الذي قد يضعه وجهاً لوجه أمام عمره. إنه لا يستهلك المحتوى فحسب؛ إنه يستهلك نفسه كيلا يشعر بها.

في عالم كهذا، تأتي (وَالْعَصْرِ) لا لتضيف معلومةً جديدةً إلى العقل، بل لتردّ إليه القدرة على الدهشة أمام البديهي. كل إنسان يعرف أن الوقت يمضي، لكن قليلاً من الناس يعيشون كما لو أنهم يعرفون. المعرفة التي لا تغيّر صلة المرء بوقته ليست إلا حقيقةً باردة محفوظة في الذهن.

القرآن لا يقول هنا إن العصر يمضي؛ فهو لا يشرح ما تراه العيون، بل يقسم به ليغيّر موقعه في الوجدان. ينقله من عادةٍ كونيةٍ إلى آية، ومن رقم على الساعة إلى شاهد، ومن إطار للحياة إلى رأس مالها. فإذا استيقظ هذا المعنى في القلب، لم تعد الدقيقة شيئاً صغيراً؛ لأن الأبد قد يبدأ منها.

ففي لحظة واحدة قد يتوب إنسان فتتغير جهة عمره كله. وفي لحظة قد يقول كلمة تهدم قلباً سنين. وفي لحظة قد يختار طريقاً يلزمه إلى آخر حياته. وفي

لحظة خفية بينه وبين الله قد يصدق صدقًا تُغفر له به أوزار، وتُفتح له به أبواب. الزمن متشابه في المقاييس، لكنه ليس متشابهًا في المصائر.

وهذه من أسرار العمر: أن اللحظات لا تُوزن بطولها، بل بما تحمله. لحظة إبراهيم عليه السلام أمام النار ليست كساعة من لهو؛ وليلة القدر ليست كسائر الليالي؛ وسجدة صادقة قد تحتوي من حياة القلب ما لا تحتويه أعوام من الحركة الغافلة. الزمن في ميزان المعنى ليس كميةً جامدة، بل وعاءٌ تتفاوت قيمته بما يودع فيه.

وإذا كان الزمن رأس مال الإنسان، فإن القلب هو التاجر، والإرادة هي يد المعاملة، والعمل هو الصفقة التي لا تُعرف حقيقتها إلا عند إغلاق السوق. وما الدنيا إلا سوقٌ يُفتح كل صباح، ثم ينفض كل مساء؛ يعود الناس منه، فمنهم من اشترى بوقته ما يبقى، ومنهم من باع ما يبقى بما يفنى، ومنهم من ظل يتفرج حتى أُغلقت الأبواب.

إن القسم بالعصر يضع الإنسان أمام فقره الوجودي: أنت كائن مؤقت، في عالم مؤقت، تحمل فرصةً محدودة، ولا تعرف متى يُقال لها: انتهت. وهذه المحدودية ليست سببًا للعبث كما يتوهم من حُجب عن الآخرة، بل هي التي تمنح الاختيار جلاله. لو كان الوقت بلا نهاية لما كانت اللحظة قيمتها، ولو كان يمكن إعادة الحياة مراتٍ لا تنتهي لما حمل القرار كل هذه المسؤولية.

الموت لا يجعل الحياة بلا معنى؛ بل يكشف أن معناها لا يحتمل التأجيل. والنهاية لا تُبطل الطريق؛ بل تجعل لكل خطوة وزنًا. ولو لم تكن للأيام حافة

تنتهي عندها، لما كان للوفاء جمال، ولا للصبر بطولة، ولا للتوبة استعجال، ولا للقاء الله ذلك الجلال الذي ترتعد له الأرواح.

لكن الإنسان يحاول أن ينسى هذه المحدودية. يبني حياته النفسية على افتراض خفي بأنه باقٍ، وإن كان يصرح بلسانه أنه سيموت. يرتب خطته كأن المستقبل ملكه، ويؤجل إصلاح قلبه كأن غداً قد وقع له عهداً بالحضور. فإذا جاءه موت قريب، اضطرب أياماً، ثم أعاد ترتيب غفلته وعاد إلى عاداته، كأنه لم ير في النعش مرآته.

إننا نرى الراحلين ونظن أن الموت وقع عليهم وحدهم، مع أن كل جنازة رسالة إلى الأحياء: الطريق الذي انتهى بهم يسير بكم. الفرق أنهم بلغوا آخره، وأنتم لا تزالون في بعضه. وربما كان بينكم وبين نهايتكم أقل مما تظنون.

وفي (وَالْعَصْرِ) شيء من جرس الإنذار، لكنه إنذار مملوء بالرحمة. فالذي ينبّهك إلى انسياب عمرك لا يريد أن يتركك فريسة الفرع، بل يريد أن ينقذك من الغفلة. السورة لا تفتح جرح الزمن لتستمتع بألم الإنسان، وإنما تكشف الداء قبل أن تدل على النجاة. ستخبره بأنه في خسر، ثم تفتح له الاستثناء: (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا).

فالقسم ليس إعلاناً عن اليأس، بل بدء عملية الإنقاذ. وما دام الإنسان يسمع (وَالْعَصْرِ) بقلب حي، فلا يزال بين يديه وقت يمكن أن يتحول من خصم إلى شاهد له. ليست المشكلة أن ما مضى قد مضى؛ فتلك سنة لا تتبدل. المشكلة أن يمضي الباقي بالطريقة نفسها.

إن أخطر ما يفعله الندم أن يتحول هو نفسه إلى إضاعة جديدة للوقت. يجلس الإنسان عند أطلال عمره، يبكي ما فات حتى يفوته ما بقي. والقرآن لا يوقظه ليظل محدقاً في خسارات الأمس، بل ليأخذ بيد اللحظة الحاضرة. الماضي موضع عبرة وتوبة، لا موضع إقامة؛ والمستقبل مجال نية واستعداد، لا وطنًا للعيش. أما العمل فلا يكون إلا الآن.

و«الآن» هي النقطة الوحيدة التي يلتقي فيها التكليف بالإرادة. الأمس خرج من يدك، والغد لم يدخلها، والحاضر هو الأمانة الموضوعية بينهما. عجيب أن تكون أصغر مساحة زمنية هي أوسع أبواب النجاة؛ فاللحظة الحاضرة تكاد لا تستقر، ومع ذلك يمكن فيها أن تغير جهة العمر كله.

وحين يستيقظ القلب لمعنى العصر، تتبدل علاقته بالأشياء. لا يعود يسأل فقط: كم يستغرق هذا العمل من وقت؟ بل يسأل: كم يستحق من عمري؟ ولا يقول: كيف أملاً فراغي؟ بل: بماذا أعمر أمانى؟ ولا ينظر إلى التأخير باعتباره مشكلةً تنظيمية فحسب، بل قد يراه خللاً في إدراك قيمة الوجود.

وحينها يتعلم أن بعض ما يستعجله لا يستحق دقةً، وأن بعض ما يؤجله هو الذي يستحق حياته. كم من إنسان قدّم العاجل لأنه يصرخ، وأخر المهم لأنه صامت! مطالب الدنيا تفرع الأبواب بعنف، أما الروح فتذبل في الداخل بلا ضجيج. الرسائل تُشعره بضرورة الرد الفوري، لكن قلبه قد ينتظر منه عودةً منذ سنوات.

إن الزمن يختبر ترتيب المحبوبات في النفس. فالإنسان يمنح وقته غالباً لما يعظمه، وإن خالف كلامه ذلك. الوقت ترجمان صامت للقيم؛ يخبرك أين

يسكن قلبك، وما الذي تعدّه جديرًا بجزء من حياتك. قد يقول المرء إن الله أحب إليه من كل شيء، ثم لا يمنح من يومه لذكره وتدبر كلامه إلا ما بقي بعد أن تقتسم الدنيا ساعات يقظته. وقد يقول إن أسرته أثمن ما لديه، ثم يعطيها جسدًا متعبًا وعينين معلقتين بالشاشة.

لا يفضح الزمن أقوالنا، بل يكشف ترتيب حقائقنا.

غير أن القرآن لا يريد للإنسان أن يحوّل هذا الوعي إلى وسواس يطارده، فيحسب كل دقيقة بقلق ويجلد نفسه على كل راحة. فالراحة التي تعين على الحق ليست ضياعًا، والأنس المباح ليس خسرانًا، ومجالسة الأحبة قد تكون من أصفى صور العمر إذا حضر فيها القلب وسلم المقصد. ليست قيمة الوقت في أن يُملأ بالحركة، بل في أن يوضع في موضعه.

قد تكون ساعة صمتٍ واعٍ أخصب من يوم صاخب، وقد تكون نومة يحتاجها الجسد أقرب إلى الحكمة من عمل يستنزفه طلبًا لصورة زائفة من الإنجاز. القضية ليست أن يتحول الإنسان إلى آلة إنتاج؛ فهذا لون آخر من عبودية العصر الحديث. القضية أن يصير الزمن مجالًا للعبودية بمعناها الواسع: عبودية تجعل العمل لله، والراحة بالله، والمحبة في الله، والسعي وفق هدايته.

إن القرآن لا ينقذ الوقت من الفراغ ليملأه بالتوتر، بل ينقذه من العبث ليملأه بالمعنى.

ومن هنا نفهم أن ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ليست دعوةً إلى الخوف المرضي من مرور الأيام، بل إلى مصالحة واعية معها.

الزمن ليس عدوًا في ذاته؛ إنه الطريق إلى الله. كل يوم ينقص من الدنيا يمكن أن يزيد في القرب، وكل شعرة تشيب في الرأس يمكن أن تكون علامة نضج لا علامة فناء فحسب، وكل مرحلة تنتقضي قد تفتح في الروح بصيرة لم تكن لها.

المؤمن لا يطلب من الزمن أن يتوقف؛ فهو يعرف أن توقفه مستحيل، وإنما يطلب من الله أن يبارك سيره فيه. لا يتعلق باللحظة لأنها باقية، بل يعمرها لأنها راحلة. ولا يحب الدنيا بوهم الخلود، بل يتلقى جمالها أمانةً، ويعلم أن فناء الأشياء لا يمنع شكرها، وإنما يمنع عبادتها.

هنا تصبح الشيخوخة، على ما فيها من ضعف، نوعًا من اقتراب الحقيقة. تسقط عن الإنسان أوهام كثيرة، ويبدأ يرى أن أكثر ما تنافس الناس عليه لم يكن يستحق كل ذلك العناء. وما يفعله الوحي في القلب مبكرًا، تفعله السنون في كثير من الناس متأخرًا: تنزع الزينة عن الزائل، وتعيد الأشياء إلى أحجامها.

لكن السعيد من تعلّم من (وَالْعَصْرِ) قبل أن تعلّمه التجاعيد؛ ومن أبصر حقيقة الطريق وهو ما يزال قادرًا على تعديل وجهته؛ ومن لم يحتج إلى أن يخسر أكثر عمره كي يفهم أن العمر كان أثمن ما لديه.

إن السورة تبدأ بالزمن، لا لأن الزمن هو أكبر حقائق الوجود، فالله سبحانه هو الأول والآخر، ولكن لأن الزمن هو ميدان امتحان الإنسان. وفيه تتحول العقائد إلى مواقف، والنوايا إلى أعمال، والمواهب إلى آثار، والوعود إلى

وفاء أو خيانة. لا يظهر صدق الإنسان خارج الزمن؛ بل يظهر حين يُمنح فرصةً محدودة، وتتنازع الرغبات، ثم يختار.

إن الإيمان نفسه لا يُختبر في الفراغ، بل في يوم مزدحم: حين يؤذّن المؤذن وأنت في شغلِكَ، وحين يدعوك الحق وأنت تخشى خسارة مصلحة، وحين تحتاج النفس إلى الصبر وهي ترى الباطل مستعجل الثمرة، وحين تتواصى بالحق مع من تحب ولو كان الحق ثقیلاً. الزمن ليس إطار التكليف فقط؛ إنه الكاشف عن جوهر الاستجابة.

ولهذا جاء القسم به عند مدخل السورة التي لخصت طريق النجاة. فكأن الآيات تقول: إن كل ما سيأتي — الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر — لا يقع إلا في هذا الرأس المال المناسب. ليست هذه صفاتٍ معلقة في الهواء، بل أعمال عمر. الإيمان يحتاج وقتاً يتجذر فيه، والعمل الصالح يحتاج زمناً يُنجز فيه، والحق يحتاج أعماراً تحمله، والصبر هو فن الثبات حين يطول الطريق.

وما أبلغ أن تبدأ السورة بكلمة توحى بالانقضاء، ثم تنتهي بالصبر الذي يوحى بالامتداد! بين العصر والصبر رحلة الإنسان كلها: زمنٌ يضغط عليه، وقلبٌ يتعلم ألا ينكسر تحت ضغطه. ولعل في التجاور الصوتي بين اللفظتين — من غير تكلف في الاشتقاق أو ادعاء علاقة لغوية بينهما — إيقاعاً يلتقطه الوجدان: عصرٌ يمضي، وصبرٌ يمسك القلب على الطريق.

(وَالْعَصْرِ)...

ليست الكلمة صوتًا يمر على الأذن، بل يدُ توقظ النائم على حافة الخسارة. تقول له: لا يزال في الكأس بقية، فلا تَبكِ ما انسكب حتى تهريقها. لا يزال في القلب نبض، وفي العين ضوء، وفي الإرادة قدرة على أن تختار. ما دمت تسمع القسم، فأنت داخل المهلة؛ وما دمت داخل المهلة، فباب النجاة لم يُغلق.

لكن لا تنس أن الباب المفتوح لا يبقى مفتوحًا إلى الأبد.

إن عمرك ينقص الآن، وأنت تقرأ. غير أن هذه اللحظة نفسها لا يلزم أن تكون نقصًا محضًا؛ فقد تكون زيادةً في البصيرة، وبدايةً لعودة، وتصحيحًا لمسار. وهنا تتجلى المفارقة الجميلة: الزمن يأخذ من جسدك في كل لحظة، لكنك تستطيع بالإيمان والعمل أن تأخذ منه معنى يبقى لك. هو ينقص عدد أيامك، وأنت تستطيع أن تزيد به وزن حياتك.

فليس السؤال: كيف نمنع العصر من المرور؟ بل: كيف نمر فيه من غير أن نضيع؟

وليس السؤال: كيف نحفظ الزمن من الفناء؟ بل: كيف نحفظ أنفسنا من الخسران؟

لقد أقسم الله بالعصر، ثم جاء الجواب مرعبًا في عمومته، محكمًا في توكيده، كأن البشرية كلها واقفة على حافة حكم لا مهرب منه: (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ).

وهنا ينتهي تأمل الزمن، لتبدأ محاكمة الإنسان. فالخسارة ليست تهمةً موجهة إلى الساعة؛ الساعة بريئة. الزمن لم يبدد الإنسان، وإنما كشف كيف بدد الإنسان نفسه.

الفصل الثاني

لَفِي خُسْرٍ... الْإِنْسَانُ الْمَحَاصِرُ دَاخِلَ خَسَارَتِهِ

بعد أن رفع القرآن الزمَنَ شاهداً، جاء بالحكم على الإنسان: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾.

جملة قصيرة، ولكنها تهبط على القلب بثقل مصير كامل. ليست وصفاً لحالة عابرة تصيب بعض الناس في بعض الأزمنة، ولا حديثاً عن خسارة تقع في زاوية محدودة من الحياة؛ إنها تكشف الوضع الأول للإنسان إذا تُرك لجريان الوقت، وانفصل عن أسباب النجاة الآتية في السورة.

فالزمن يمضي، والإنسان ينقص. والعمر رأس مال لا يثبت على حال؛ إن لم يتحول إلى ربح صار نقصانه خسارة بذاته.

ولهذا لم يحتج القرآن إلى تعداد أسباب الخسران قبل تقريره؛ لأن مجرد مرور الزمن على إنسان لم يهتد بالإيمان، ولم يثمر عملاً صالحاً، ولم ينتظم في جماعة الحق والصبر، كافٍ لأن يجعله خاسراً، مهما بدا في موازين الدنيا رابحاً.

إن التاجر قد يحتفظ برأس ماله إذا لم يربح، أما الإنسان فلا يستطيع أن يحتفظ بعمره. رأس ماله يذوب وهو يفكر، ويذوب وهو يتردد، ويذوب وهو يؤجل، ويذوب حتى وهو غافل عن السوق كلها. لا توجد منطقة محايدة في معاملة

الزمن: فكل لحظة لا تُستثمر في معنى يليق بالإنسان تنضم إلى ما فاتته، وكل يوم يخرج من يده لا يعود إليه ليسأله إن كان راضيًا عن الصفقة.

ومن هنا تبدأ رهبة الجملة: ليست الخسارة احتمالاً بعيداً ينبغي الاحتراز منه فحسب؛ إنها التيار العام الذي يجرف الإنسان، ولا ينجو منه إلا من تعلّق بالأسباب الأربعة التي ستذكرها السورة. النجاة هي الاستثناء، أما الخسران فهو المصير الذي يهبط إليه من ترك نفسه لثقل الغفلة.

توكيد يوقظ القلب من مراوغته

افتتحت الجملة بـ(إِنَّ).

ولم يكن الخبر محتاجاً في ذاته إلى هذا التوكيد، فكلام الله حق كله؛ لكن النفس البشرية هي التي تحتاج إليه. إنها بارعةٌ في إنكار خسارتها، وفي صناعة الأدلة التي تطمئن بها إلى نفسها. تستطيع أن تقف فوق خرابها الداخلي ثم تقول: أنا بخير، وأن تسمي الاعتقاد سلاماً، والانشغال نجاحاً، والتبذل قوةً، وتأجيل التوبة حكمةً وانتظاراً للوقت المناسب.

لهذا تأتي (إِنَّ) لتقطع طريق المراوغة: إن القضية ليست وهماً عابراً، ولا مبالغةً خطابية، ولا احتمالاً يقبل التسويق؛ إنها حقيقة مؤكدة، مهما أنكرتها المظاهر، ومهما غطتها الألقاب والأموال والتصفيق.

فالإنسان لا يحب أن يسمع أنه خاسر، ولا سيما إذا كانت يداه ممتلئتين. لقد تعود أن يقيس الربح بما أضافه إلى ممتلكاته، لا بما أضافه إلى نفسه؛ وبما

ارتفع من اسمه بين الناس، لا بما ارتفع من مقامه عند الله؛ وبعدد الأشياء التي دخلت بيته، لا بعدد الأوهام التي خرجت من قلبه.

قد يزداد مالاً وينقص حريةً، ويزداد شهرةً وينقص سكينتهً، ويزداد اتصالاً بالناس وينقطع عن نفسه، ويجمع من أسباب الراحة ما لا يحصى ثم يفقد القدرة على أن يرتاح. ولكنه يصر على تسمية هذا كله نجاحاً؛ لأن العالم من حوله يصفق للظاهر، ولا يملك نافذةً يرى منها حقيقة الروح.

تأتي (إِنَّ) لتقول له: ليست الحقيقة ما نجت في إقناع الآخرين به، ولا ما تكرر له لنفسك كل صباح، بل ما يثبت في الميزان حين تسقط الدعاية، وتصمت الأصوات، ويقف الإنسان وحده أمام حصيلة عمره.

ثم لم يكتف السياق بتوكيد أول الجملة؛ فجاءت اللام في قوله: (لَفِي خُسْرٍ)، فاجتمع التوكيدان حول الحقيقة: (إِنَّ) في البداية، واللام في الخبر. كأن الغفلة شديدة الكثافة حتى احتاجت الحقيقة أن تطرق باب القلب مرتين؛ مرةً لتوقظه، ومرةً لتمنعه من العودة إلى نومه.

ولا تدل كثرة التوكيد على غموض المعنى، بل على شدة مقاومة الإنسان له. فبعض الحقائق لا تُرفض لأنها ضعيفة البرهان، وإنما لأنها موجهة. والإنسان قد يناقش طويلاً لا بحثاً عن الصواب، بل دفاعاً عن الصورة التي يحب أن يحتفظ بها عن نفسه.

إنه مستعد لأن يعترف بفشله في صفقة، أو خطئه في تقدير، أو تقصيره في عمل؛ لكنه يخشى الاعتراف بأن بناء حياته نفسه قد قام على ميزان مختل.

فالخطأ الجزئي يمكن إصلاحه من غير أن يعيد الإنسان النظر في ذاته، أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ فيضع الحياة كلها تحت السؤال.

الإنسان... الاسم الذي يشملنا جميعاً

لم تقل الآية: إن إنساناً لفى خسر، ولم تحصر الحكم في أمة أو طبقة أو زمن، وإنما قالت: ﴿الْإِنْسَانَ﴾.

والتعريف هنا يفيد استغراق جنس الإنسان في هذا الحكم، كما يكشفه الاستثناء بعده: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. فالأصل العام هو الخسر، ثم تخرج منه طائفة بصفات محددة، لا بنسب ولا بلون ولا بمال ولا بمرحلة تاريخية.

الإنسان هنا هو أنا وأنت، والملك والفقير، والعالم والأمي، والقديم والمعاصر. كلنا نقف تحت سلطان الزمن، وكلنا نحمل رأس المال نفسه من حيث حقيقته: عمراً محدوداً لا نعرف مقداره، وقلباً معرضاً للتقلب، ونفساً تفتنها العاجلة، وطريقاً ينتهي بالموت.

لا يستطيع أحد أن يخرج من عموم الآية لأنه يظن نفسه أفضل من سواه. فالقرآن لا يترك قارئه واقفاً خارج النص يراقب خسران الآخرين، بل يدخله في الحكم أولاً، ثم يطالبه أن يقدم برهان نجاته.

وهذه طريقة القرآن في تربية الضمير: لا يسمح لك أن تحول الهداية إلى مرآة توجهها نحو عيوب الناس، وتخفي بها وجهك. تقرأ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ فلا يكون السؤال الأول: من الخاسرون حولي؟ بل: ما الذي يخرجني أنا من هذا الحكم؟

إن النفس تحب أن تقرأ آيات الوعيد بأسماء خصومها. كلما مرّت بوصفٍ للغفلة، ألصقته بمن يخالفها، وكلما سمعت عن الكبر رأت وجه إنسان آخر. أما هي فتضع نفسها دائماً في موضع الناجي قبل أن تمتحن شروط النجاة. لكن سورة العصر تغلق هذا الباب: الحكم عام، والاستثناء مشروط، ولا يخرج أحد من العموم بمجرد الدعوى.

هنا تسقط الامتيازات الزائفة. لا تنفع الإنسان مكانته الاجتماعية، ولا نسبه، ولا انتمائه المجرد، ولا الكلمات التي حفظها إن لم تتحول إلى إيمان وعمل وحق وصبر. النجاة لا تورث مع الاسم، ولا تمنحها الجماعة لمن انتسب إليها؛ بلا حقيقة، ولا يكفي أن يعيش المرء بجوار الصالحين كي يصير صالحاً؛ فالسفينة لا تنجو بصورة مرسومة على الشاطئ، وإنما تنجو بما تحمله في بنائها من أسباب العبور.

ليس أمام الخسران بل في داخله

كان يمكن أن يقال: إن الإنسان لخاسر. لكن التعبير القرآني جاء بصورة أشد إحاطة وإيحاء: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾.

لم تجعل الآية الخسر صفةً عارضةً تلامس الإنسان من الخارج، بل جعلته ظرفاً يحيط به. إنه ليس واقفاً أمام الخسارة يتأملها، ولا ماراً بجوارها، بل هو في داخلها: تغمره من فوقه ومن تحته، وتمتد حوله في جهات حياته.

إن حرف ﴿فِي﴾ يرسم المشهد قبل أن يشرحه. كأن الخسران محيط واسع سقط فيه الإنسان، أو مناخ كثيف يتنفسه، أو تيار يجري وهو في داخله. وهذا أبلغ من مجرد الإخبار بأنه خاسر؛ لأن الخاسر قد تكون خسارته في شيء واحد،

أما من كان (في خُسْرٍ) فقد أحاط به الخسر، وصار كأنه مكان إقامته ما لم يخرج منه بالاستثناء.

هو في خسر لأن بدنه يتناقص، وأجله يقترب، وفرصه تضيق، وما يفوته من أيامه لا يعود. وهو في خسر إذا عرف الحق ولم يتبعه، وإذا عمل بلا إيمان، وإذا آمن في عزلة أنانية لا تحمل همّ الحق، وإذا عرف الحق ولم يصبر على كلفته.

وقد يكون في خسر وهو يضحك. فالخسارة في المنظور القرآني لا يلزم أن تكون شعورًا حاصرًا؛ قد يعيشها المرء في صورة متعة، كما يشرب الظمآن ماءً مالحًا فيشعر بلذة البلل قبل أن يزداد عطشًا. وليس كل ما يسرّ النفس ينفعها، ولا كل ما يؤلمها يضرها. قد يكون الحرمان نجاة، وقد يكون العطاء استدراجًا، وقد تكون الشهرة بابًا إلى ضياع النفس، وقد يكون الخفاء رحمةً تصون القلب.

إن الإنسان يخلط عادةً بين الألم والخسارة، كما يخلط بين اللذة والربح. فإذا تألم ظن أنه خسر، وإذا استمتع ظن أنه ربح. لكن الطفل يتألم من الدواء وهو يُشفى، ويستطيب الحلوى وهي تفسد أسنانه. كذلك الروح: قد تتألم من مقاومة الهوى وهي تتحرر، وتستمتع بالاستجابة له وهي تفقد سيادتها.

مقياس الخسران ليس مقدار الألم الذي نشعر به الآن، بل مقدار ما نفقده من حقيقتنا ومصيرنا. ورب لحظة موجهة ردّت إنسانًا إلى الله فكانت من أعظم أرباحه، ورب نجاحٍ صاخب ملأ قلبه كبرًا وغفلةً فكان بداية خسارته، وإن ازدحم الناس حوله مهنئين.

خُسْرٌ بِلا حدود مرئية

ثم جاءت كلمة (خُسْرٍ) نكرة.

والتنكير في هذا المقام يفتح المعنى على التفخيم والتهويل والاتساع: خسْرٌ عظيم لا تحيط العبارة القصيرة بتفاصيله، وخُسْرٌ متعدد الوجوه، لا ينتهي عند فقد المال أو الجاه، بل يبلغ النفس والعمر والمصير.

لم تقل الآية: لفى الخسر، كأنها تشير إلى خسارة معلومة محدودة يستطيع الإنسان أن يقدر حجمها؛ بل تركتها نكرةً مهيبَةً، كأن وراءها أقاليم من الفقد لا تراها العين لأول وهلة. وكلما ظننت أنك أحطت بمعنى الخسر انفتح لك منه باب آخر.

إنه خسر الوقت حين يمر بلا معنى، وخسر العقل حين يستخدم في تبرير الهوى بدل اكتشاف الحق، وخسر الفطرة حين تُدفن تحت ركام الاعتیاد، وخسر القلب حين يفقد القدرة على الخشوع، وخسر الإرادة حين تصير عبدةً للشهوة أو الخوف، وخسر العلاقات حين تتحول إلى تبادل للمنافع، وخسر الحقيقة حين تُستبدل بالتصفيق، ثم خسر المصير حين يصل الإنسان إلى الله بلا زاد.

وليس أشد الخسران أن يفقد المرء ما كان يملك، بل أن يفقد نفسه وهو يظن أنه يجمع لها. قال تعالى في موضع آخر: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾. هناك تنكشف الخسارة النهائية: لم تكن القضية أن شيئاً خرج من يد الإنسان، بل أن الإنسان نفسه خرج من يده.

قد يفقد ماله وتبقى له نفسه فيستأنف الطريق، وقد يفقد منصبه ويبقى له قلبه وكرامته، وقد يمرض جسده وتصح روحه؛ أما إذا خسر نفسه، فبأي شيء يستدرك ما فاتته؟ وما قيمة أن يربح العالم كله، ثم لا يجد ذاته التي ستفرح بهذا العالم؟

إن كثيرًا من الناس يحرسون ممتلكاتهم ولا يحرسون أنفسهم. يخاف أحدهم على ماله من السرقة، ولا يخاف على قلبه من الحسد. يغلق أبواب بيته بإحكام، ويترك أبواب وعيه مفتوحة لكل صورة وفكرة وشهوة. يحسب حسابًا دقيقًا لما يدخل رصيده وما يخرج منه، لكنه لا يحاسب كلمة أنقصت مروءته، أو نظرة أظلمت قلبه، أو عادة التهمت إرادته.

لأن خسارة المال مرئية، أما خسارة الإنسان لنفسه فتقع في صمت. لا يستيقظ فيجد إشعارًا يقول له: نقص اليوم من صفائك قدر، ومات من حيائك شيء، وضعفت قدرتك على التوبة، وصار المنكر في عينك أقل قبحًا. هذه الخسائر لا تظهر في كشوف الحساب، لكنها تتراكم في باطن الروح حتى يأتي يوم يجد فيه المرء أن الطريق إلى الخير الذي كان يسير فيه بسهولة صار شديد الوعورة.

الذنوب لا تأخذ من الإنسان حسناته فحسب، بل قد تأخذ منه حساسيته تجاه الذنب. وهذه خسارة مضاعفة: أن يمرض القلب، ثم يفقد القدرة على الشعور بمرضه. فالألم — مع قسوته — دليل على أن في الجسد حياة تقاوم؛ أما التبلد فقد يكون سكون الموت وهو يتسلل في صورة راحة.

الخسران الذي يتكرر في هيئة نجاح

ما أكثر ما يأتي الخسر في هذا العالم مرتدياً ثياب الربح.

قد يُعرض على الإنسان منصب يرفعه في أعين الناس، لكنه لا يناله إلا إذا انحنى في داخله. فيربح الكرسي ويخسر القامة. وقد تأتيه شهرة واسعة، لكنها تنتزع منه إخلاصه، فيربح وجوهاً تلتفت إليه ويخسر وجهته إلى الله. وقد يجمع المال من باب يجرح ضميره، فيمتلئ حسابه ويفتقر قلبه.

المشكلة أن المكسب العاجل ظاهر، والخسارة الباطنة مؤجلة. الإنسان يرى المال وهو يدخل، ولا يرى النور وهو يخرج من قلبه. يسمع التصفيق الذي حصله، ولا يسمع تصدع صورته الداخلية. يشعر بلذة الغلبة في الخصومة، ولا يشعر فوراً بما خسره من عدل ورحمة.

وهكذا تتشكل حياة كاملة من الصفقات الصغيرة: يقول كلمة لا يؤمن بها ليحصل على قبول، ويسكت عن حق حتى لا يفقد مصلحة، ويجامل باطلاً ليضمن مكاناً، ويؤجل توبته ليحافظ على لذة؛ وفي كل مرة يظن أن الخسارة يسيرة. لكنه لا ينتبه إلى أن الشيء الذي يبيعه بالتقسيط هو نفسه.

إن النفس لا تنهار غالباً بقرار واحد، بل بتنازلات يهون كل واحد منها منفرداً. خطوة بعد خطوة، ينقل الإنسان حدوده الأخلاقية إلى الوراء، حتى يقف يوماً في مكان كان يستحيل عليه قديماً أن يتخيل نفسه فيه. وحين يسأل: كيف وصلت؟ لا يجد حادثة كبرى واحدة، بل يجد سلسلة من «المرءة الأخيرة» التي لم تكن الأخيرة.

وهنا يصبح الخسر محيطًا؛ لأن الإنسان إذا فقد مرجعيته الداخلية لم يعد يعرف أنه يفقد. تتبدل الأسماء في وعيه: الجبن يصير حكمة، والتلون مرونة، والنفاق لباقة، والطمع طموحًا، والقسوة حزمًا، والتخلي عن الحق واقعية. فإذا فسدت الأسماء، سهل على النفس أن تقيم في الفساد مطمئنة؛ لأن الإنسان لا يقاوم شرًا منحه اسمًا حسنًا.

والقرآن يعيد إلى الأشياء أسماءها. يقول للإنسان الذي زين خسارته بالألقاب: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾. لا يهم ماذا سمى الناس ما تفعل، بل ما حقيقته في ميزان الله. قد يمنحك العالم وسام النجاح على فعل هو في الآخرة وثيقة إدانة، وقد يسخر منك لخسارة دنيوية كانت في الحقيقة ثمن نجاتك.

قلق الإنسان المعاصر: كثير من الوسائل، قليل من الوجهة

لم يكن الإنسان في زمن من الأزمنة محاطًا بهذا القدر من الوسائل التي تعدّه بالسعادة، ومع ذلك يبدو القلق كأنه الظل الملازم لحضارته. كل اختراع يقول له: سأوفر لك وقتًا، ثم يجد نفسه أكثر عجلة. وكل وسيلة اتصال تقول له: سأقرب الناس منك، ثم يزداد شعوره بالعزلة. وكل منصة تقول له: سأمنحك صوتًا، ثم يضيع صوته الداخلي وسط ملايين الأصوات.

إنه يفتح عينيه على عالم يطالبه منذ الصباح بأن يكون أكثر إنتاجًا، وأكثر ظهورًا، وأكثر سرعة، وأكثر امتلاكًا. لا يُسمح له أن يكون فقط؛ عليه دائمًا أن يبرهن أنه يتقدم. يقارن وجهه بوجوه مصفاة، وبيته ببيوت مختارة الزوايا، وحياته بلحظات منتقاة من حياة الآخرين، ثم يشعر أنه متأخر في سباق لم يسأل يومًا إن كان يستحق أن يدخله.

لقد صار الخسران المعاصر يتغذى من المقارنة. لا ينظر الإنسان إلى نعمته كما هي، بل كما تبدو إلى جوار نعمة غيره. وما كان يسعده أمس قد يصبح اليوم سبباً لشقائه، لا لأنه نقص، بل لأنه رأى من يملك أكثر منه. وهكذا لا تسرق المقارنة الرضا وحده؛ إنها تسرق القدرة على رؤية الحياة مباشرة، فيعيش المرء بعين الآخرين، ويزن نفسه بميزان لم يصنعه.

وأشد أشكال الفقر أن يعيش الإنسان في نعمة لا يستطيع تذوقها، لأن عينه معلقة بما في أيدي الناس. يكون حاضراً في مكان، وقلبه غائب في مكان آخر. يمسك اللحظة، لكنه لا يسكنها؛ يصورها كي يثبت أنه عاشها، ثم يكتشف أنه كان منشغلاً بإثبات الحياة عن عيشها.

إنه يحوّل نفسه إلى معرض دائم. لا يسأل: ماذا أشعر؟ بل: كيف سيبدو شعوري؟ لا يسأل: ما قيمة هذا العمل؟ بل: كم سيلقى من انتباه؟ وبمرور الوقت لا يعود يعرف الفرق بين ذاته الحقيقية والصورة التي يديرها أمام الناس. وحين تنطفئ الشاشات، يجد نفسه وحيداً مع شخص لم يتعرف إليه قط.

أليس هذا وجهًا من وجوه (خُسْرٍ)؟

أن يربح الإنسان حضوراً في أعين الآلاف، ويغيب عن نفسه.

وأن يعرف أخبار العالم كله، ولا يعرف الخبر الجاري في قلبه.

وأن يحفظ طرق الوصول إلى كل مكان، ويضل الطريق إلى سكينته.

وأن تتسع أمامه الخيارات حتى يعجز عن الاختيار، وتتكاثر حوله الأصوات حتى لا يسمع نداء فطرته.

خسارة المعنى

ليست أزمة الإنسان الكبرى أنه يتألم؛ فالألم قد يُحتمل إذا كان له معنى. إنما أزمته أن يتألم ولا يدري لماذا، وأن يركض ولا يعرف إلى أين، وأن ينجح ثم لا يجد في النجاح جوابًا عن السؤال الذي كان يحرقه.

قد يتحمل المرء مشقة الطريق إذا عرف غايته، لكنه ينهار من خطوات قليلة إذا بدت له بلا وجهة. لذلك ليست سعة الحياة بكثرة الراحة، بل بوضوح المعنى. وقد يكون صاحب الرسالة متعب الجسد مطمئن القلب، بينما يكون المترف مستريح الجسد ممزق الروح.

إن الخسران يبدأ حين يفقد الإنسان المعنى الذي يجمع شتات حياته. تصبح أعماله جزرًا منفصلة: يعمل ليحصل على المال، ويحصل على المال ليشترى الراحة، ويطلب الراحة ليستطيع العمل من جديد. تدور الحلقة على نفسها، ولا يخرج منها سؤال الغاية. يأكل ليعيش، ويعيش ليعمل، ويعمل ليستطيع أن يأكل؛ ثم يأتي الموت فيقطع الدوران قبل أن يعرف لماذا كان يدور.

الإيمان وحده يضع الخط المستقيم داخل هذه الدائرة. يخبر الإنسان من أين جاء، ولماذا يعيش، وإلى أين يمضي. لا يلغي تفاصيل الدنيا، بل ينظمها حول مركز. يصبح العمل عبادةً إذا صلحت نيته، والرزق أمانة، والأسرة ميدان رحمة، والابتلاء تربيةً وتمحيصًا، والموت عبورًا لا سقوطًا في العدم.

أما إذا غاب المركز، صارت التفاصيل تتنازع الإنسان. كل رغبة تسحبه إلى جهة، وكل خوف يقطعه عن جهة، حتى يعيش ممزقاً بين ذوات كثيرة: ذات يريدتها المجتمع، وذات تفرضها المصلحة، وذات تنشهاها النفس، وذات يخشى أن يراها الناس. وفي هذا التشطي يفقد البوصلة، ثم يحاول علاج حيرته بالمزيد من الحركة.

لكن كثرة الطرق لا تنفع من فقد الوجهة.

قد يتقدم الإنسان سريعاً في الطريق الخطأ، فتكون سرعته زيادةً في البعد. وقد يتأخر في الطريق الصحيح، لكنه يقترب مع كل خطوة. لهذا لا يقيس القرآن الحياة بمقدار الحركة، وإنما بحقيقة الاتجاه: إيمان، وعمل صالح، وحق، وصبر. هذه ليست أعمالاً متناثرة؛ إنها الجهات الأربع لبوصلة النجاة.

أن يخسر الإنسان قلبه

من أخفى صور الخسران أن يبقى للإنسان كل شيء إلا القلب الذي يتذوق به الأشياء.

يأكل ولا يجد طعم الشكر، ويسكن بيتاً جميلاً ولا يجد فيه السكينة، ويجلس بين من يحبونه ولا يستطيع استقبال محبتهم، ويقرأ كلام الله فلا تتحرك في داخله نافذة. النعم موجودة، ولكن الجهاز الروحي الذي يدركها قد أصابه العطب.

القلب لا يموت دائماً بانطفاء كامل؛ قد يظل ينبض للحسد والغضب والشهوة، لكنه يبرد أمام الحق والجمال والرحمة. تثيره كلمة تمس كبرياءه، ولا تثيره

آية تهز الجبال. يسهر من أجل صفقة، ولا يستطيع أن يمنح ربه ركعتين في جوف الليل. يحفظ إساءةً صغيرةً سنوات، وينسى نعمًا تحيط به من كل جهة. وتلك خسارة لا تظهر في الوجه. قد يراه الناس قويًا، ناجحًا، حاضر الذهن، لكنه في داخله فقد القدرة على البكاء من خشية الله، وعلى الفرح بخير الناس، وعلى الاعتذار، وعلى الدهشة أمام النعمة. لقد صار يملك الأشياء، لكن الأشياء لا تصل إلى روحه.

إن القلب القاسي ليس قلبًا قويًا، بل قلب فقد بعض وظائف الحياة. الحجر لا يتألم، لكن عدم ألمه ليس فضيلة. والإنسان الذي لا تهزه الموعظة، ولا يوقظه الموت، ولا تؤلمه الخطيئة، لا يكون قد بلغ الطمأنينة؛ ربما بلغ مرحلةً من الخسر لا يعود فيها يشعر بالخسران.

ولهذا كان من رحمة الله بالعبد أن يُبقي في قلبه ألم التقصير. الندم حياة، ما دام يقوده إلى التوبة لا إلى اليأس. والوحشة بعد الذنب رسالة تقول إن القلب لم يطبع عليه بعد. أما حين يستوي عند الإنسان النور والظلمة، فذلك السكون أخوف من الاضطراب؛ لأن الميت لا يشكو جراحه.

أن يخسر الإنسان حريته

يظن المرء أنه حر ما دام لا يقيدته إنسان آخر، لكنه قد يكون عبدًا لشهوة لا يراها، أو لصورة يريد المحافظة عليها، أو لخوف من كلام الناس، أو لعادات صارت أقوى من إرادته.

ما أكثر السلاسل التي لا تُسمع لها خشخشة.

قد يستيقظ الإنسان على هاتفه لا لأنه اختار، بل لأن عادةً خفيةً تقوده. يغضب بالطريقة نفسها، ويشترى تحت الضغط نفسه، ويكرر الآراء التي تمنحه قبول جماعته، ثم يسمي هذا كله شخصيةً واختيارًا. لكنه إذا حاول أن يتوقف اكتشف قوة القيود.

العبودية للهوى خسران؛ لأنها تنتزع من الإنسان قدرته على قيادة نفسه. وما قيمة أن يملك المرء قرار الآخرين ولا يملك قرار عينيهِ ولسانه وغضبه؟ وما معنى أن ينتصر في المعارك الخارجية، بينما تهزمه رغبة صغيرة في السر؟ إن الحرية الحقيقية لا تبدأ حين يستطيع الإنسان أن يفعل ما يريد، بل حين يستطيع أن يريد ما يليق به، وأن يمتنع عما يهينه ولو دعت إليه نفسه. فالذي يفعل كل ما يشتهي ليس حرًا بالضرورة؛ ربما كان منفذًا مطيعًا لأوامر شهواته.

الإيمان يحرر الإرادة بإخضاعها لله وحده. وهذه العبودية ليست نقيض الحرية، بل أصلها؛ لأن القلب إذا امتلأ بتعظيم الله صغرت في عينه الآلهة المتفرقة: نظرة الناس، وإغراء المال، ورهبة المنصب، وسطوة الجماعة، وشهوة اللحظة. ومن لم يكن عبدًا لله صار موزع العبودية بين أشياء كثيرة، يطلب رضاها جميعًا فلا يرضى.

الخسارة المؤجلة

من أسباب غفلة الإنسان أن كثيراً من الخسائر لا تقدم فاتورها فوراً.

يكذب، فلا تنشق الأرض تحته. يظلم، ثم يعود إلى بيته سالمًا. يهمل قلبه سنوات، ومع ذلك يستمر جسده في الحركة. فيظن أن عدم ظهور العقوبة دليل على عدم وجود الخسارة. لكنه ينسى أن بعض الديون تنمو في الصمت، وأن البذرة لا تكشف ثمرتها يوم توضع في التراب.

قد تكون عقوبة الكلمة القاسية أن ينطفئ شيء من الرحمة في قلب قائلها. وقد تكون عقوبة الخيانة أن يفقد الإنسان احترامه الخفي لنفسه، وإن حافظ أمام الناس على وقاره. وقد يكون أثر الظلم أن يصير الظالم محتاجًا إلى أكاذيب جديدة يحمي بها صورته، حتى يبني حول نفسه سجنًا من التبريرات.

ليس كل عقاب حادثة تقع من الخارج؛ قد يكون تحولًا يحدث في الداخل. أن يهون عليك الذنب بعد أن كان يؤلمك، وأن تستثقل الطاعة بعد أن كانت تريحك، وأن تنفر من أهل الصدق لأن حضورهم يزعج كذبك؛ كل ذلك خسائر واقعة، وإن ظل الجسد صحيحًا والمال كثيرًا.

ثم تأتي الآخرة فتكشف ما كان مستورًا. هناك لا ينشأ الخسران من جديد، بل يظهر في صورته الكاملة. تُرفع الأغطية التي كانت تحجب الإنسان عن حقيقة صفقاته، ويرى العمر دفعةً واحدة: الساعات التي ظنها تافهة، والكلمات التي حسبها منسية، والمواقف التي باع فيها الحق بثمن قليل.

عندئذ يفهم أن الله لم يظلمه، وأن النتيجة كانت كامنةً في الطريق منذ بدايته. لقد كان الخسر ينمو معه، لكنه لم يكن يملك عيناً تراه.

وهم الوقت الكثير

يؤجل الإنسان لأن المستقبل يبدو في خياله واسعاً، بينما الحاضر يبدو ضيقاً. يقول: سأفعل لاحقاً، كأن «لاحقاً» مستودع لا ينفد. لكنه حين يصل إلى الغد يجده حاضراً جديداً مثقلاً بأعمال جديدة، فيدفع المهمة إلى غد آخر، حتى تتحول حياته إلى سلسلة من الوعود التي لم ينفذها لأهم إنسان فيها: نفسه.

توبة مؤجلة. كتاب مؤجل. اعتذار مؤجل. مجلس مع الوالدين مؤجل. إصلاح بين متخاصمين مؤجل. عودة إلى القرآن مؤجلة. يعيش الإنسان كأنه يملك أعماراً احتياطيةً يفتحها حين ينتهي من إنفاق هذا العمر.

لكن الزمن لا يمنح ضمانات. نحن ننام كل ليلة اعتماداً على رحمة لم نوقع معها عقداً بأن تعيدنا صباحاً. ونفترق عن نحب كأن اللقاء القادم حقيقة ثابتة، ثم قد تنغلق بينهم وبيننا أبواب الأرض كلها قبل أن نقول الكلمة التي أجلناها.

ليس المقصود أن يعيش الإنسان مذعوراً من الموت في كل لحظة، بل أن يعيش صادقاً مع محدوديته. الخوف الصحي من الفوات لا يشل الإرادة، بل يحررها من التسويف. يجعل المرء يقول الكلمة الطيبة ما دام قادراً، ويتوب ما دام الباب مفتوحاً، ويضع الأشياء المهمة قبل الأشياء الصاخبة.

فالخسران ليس فقط أن تفعل الشر، بل قد يكون أن تؤخر الخير حتى تموت فرصته. بعض الأعمال لها أوقات إن فاتت لم تعد بالصورة نفسها: برّ والد

قبل رحيله، وتربية طفل قبل أن يكبر، ووقوف مع صديق في ساعة انكساره، وكلمة حق حين يكون لها أثر. قد تفعل شبيهها لاحقًا، لكن العمل الأول قد مضى إلى الأبد.

خسارة القدرة على البدء

من طول ما يؤجل الإنسان، قد لا يخسر الوقت وحده؛ بل يخسر القدرة النفسية على البداية. كل تأجيل يترك في الإرادة ضعفًا صغيرًا، وكل وعد لا يفي به لنفسه ينقص من ثقته بها. حتى إذا أراد أن ينهض وجد بينه وبين الفعل جبالًا من العادات القديمة.

إن الإرادة تُربى كما تُربى العضلات: تقوى بالفعل، وتضعف بالاستسلام. والذي يقول كل يوم «غداً» لا ينقل العمل إلى الغد فقط، بل يدرب نفسه على الفرار. وحين يأتي الغد تكون نفسه أكثر مهارة في اختراع العذر.

هذا وجه دقيق من (خُسْرٍ): أن يخسر الإنسان رأس المال، ثم يخسر معه الأداة التي كان يستطيع أن يستثمر بها ما بقي. يضع الساعات أولاً، ثم تضع منه العزيمة، ثم يصبح التغيير في نظره حلمًا بعيدًا، فيتصالح مع واقعه ويسمي عجزه قدرًا.

لكن القرآن حين يكشف الخسر لا يريد للإنسان أن يستسلم له. فلو كان الحكم حكم إغلاق لما جاء الاستثناء. إنما يكشف له موقعه كي يعرف حاجته إلى الخروج. لا يبدأ الشفاء بإنكار الجرح، ولا تبدأ النجاة بأن يقتنع الغريق نفسه أنه على اليابسة.

الاعتراف بالخسر ليس يأسًا، بل أول الصدق. اليأس يقول: لا سبيل إلى النجاة. أما الاعتراف فيقول: أنا في حاجة إليها. وبين العبارتين مسافة ما بين الموت والتوبة.

الخسران الجماعي

لا تتحدث السورة عن إنسان منعزل عن محيطه. فالخسر قد يتحول إلى مناخ عام، حتى يصبح الناجي غريبًا، ويغدو الباطل هو اللغة اليومية للمجتمع. قد تتواطأ جماعة كاملة على مقاييس مقلوبة: تجعل النجاح في كثرة الامتلاك ولو من حرام، والقوة في الظلم، والذكاء في الخداع، والواقعية في التخلي عن المبادئ.

وحين يشيع الخسر لا يعود الناس يشعرون بغرابته؛ لأن الإنسان يستمد كثيرًا من طمأنينته من التشابه مع من حوله. إذا رأى الجميع يسيرون في اتجاه واحد، ظن أن كثرتهم برهان الطريق، ونسي أن الخطأ لا يصير حقًا بكثرة السائرين فيه.

قد يغرق ركاب السفينة جميعًا وهم يهنتون بعضهم على سرعة الإبحار. المشكلة ليست في أن السفينة بطيئة، بل في أنها تتجه إلى الصخرة. وقد تكون الحضارة شديدة التقدم في الوسائل، شديدة التأخر في الغايات؛ تبلغ القمر ولا تعرف ماذا تفعل بحقد صغير في قلب الإنسان، وتبني شبكات تصل القارات ثم تعجز عن وصل الأب بابنه، وتنتج أدوات الدمار أسرع مما تنتج ضميرًا يمنع استعمالها.

إن التقدم ليس كلمةً مطلقة. لا بد من سؤالين: تقدمٌ في ماذا؟ وتقدمٌ إلى أين؟

فإذا ازدادت قدرة الإنسان ولم تزد حكيمته، اتسعت دائرة الخطر. وإذا قويت يده وضعف ضميره، صار أكثر قدرة على الظلم. التقنية تضاعف ما في الإنسان؛ فإن كان رحيماً وسعت رحمته، وإن كان طامعاً وسعت طمعه. ولهذا لا تنقذ الأدوات إنساناً فقد المعنى، بل قد تجعل خسارته أكثر تنظيمًا واتساعًا.

ومن هنا نفهم حاجة السورة لاحقًا إلى (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ). فالإنسان لا يقاوم الخسران العالمي وحده بسهولة. يحتاج إلى أصوات تذكره حين يصبح الباطل صاخبًا، وإلى قلوب تثبته حين يدفع ثمن اختلافه عن التيار. إن النجاة في زمن الخسر ليست مجرد قرار فردي، بل بناء جماعة صغيرة تحمل ميزانًا لا تصنعه السوق ولا الجماهير.

الغربة داخل عالم الخسران

حين يستيقظ الإنسان لمعنى الآية، قد يشعر بالغربة. يرى الناس يركضون نحو أشياء لم تعد تفتنه كما كانت، ويسمعهم يحتفلون بانتصارات يرى وراءها خسائر، ويجد نفسه عاجزًا عن الاندماج الكامل في عالم يطلب منه أن ينسى آخرته كي يثبت نجاحه في دنياه.

هذه الغربة موجهة؛ لأن الإنسان كائن يحب الانتماء. لا يريد أن يكون مخالفًا دائمًا، ولا أن يشرح في كل مرة لماذا رفض ما قبله الآخرون. قد يتعب من الثبات، ويشك للحظة: هل المشكلة في العالم أم في؟ هل أنا أبالغ؟ لماذا يبدو الطريق الذي اخترته قليل السالكين؟

لكن الغربة ليست فضيلة في ذاتها؛ فقد يغترب الإنسان عن الناس بباطل أو كبر أو سوء خلق. إنما تكون الغربة كريمةً حين تنشأ من وفاء للحق مع رحمة

بالخلق. فلا يتحول اختلاف المؤمن إلى استعلاء، ولا تجعله بصيرته بخسران العالم يحتقر أهله؛ بل تزيده شفقةً عليهم، لأنه يعلم أنه كان يمكن أن يكون غارقاً معهم لولا هداية الله.

المؤمن لا يقف على شاطئ النجاة ساخرًا من الغرقى؛ إنه يمد لهم الحبل. ولهذا لم تقل السورة: آمنوا وعملوا الصالحات ثم اعتزلوا الخاسرين، بل قالت: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾. يحمل الناجي همّ نجاة غيره، ويعرف أن إيمانه ليس امتيازاً شخصياً يتباهى به، بل أمانة تدعوه إلى البيان والرحمة والصبر.

وقد تشتد الغربة حين يصير المتمسك بالحق مطالباً بأن يعتذر عن وضوحه، بينما لا يعتذر الباطل عن فجأته. يرى التنازل مرونةً، والثبات تشدداً، والحياء ضعفاً، والعفة سذاجة. عندئذ يحتاج القلب إلى ميزان لا يتغير بتغير المصطلحات، وإلى يقين بأن كثرة الخاسرين لا تجعل الخسران ربحاً.

إن أصعب لحظات الطريق ليست حين يعرف الإنسان الحق، بل حين يعرفه ويدفع ثمن البقاء معه. المعرفة قد تضيء في لحظة، أما الوفاء لها فيحتاج عمراً من الصبر. ولهذا ستختم السورة بـ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، لأن الحق الذي لا يسنده الصبر قد يتحول إلى ذكرى جميلة هُزمت أمام أول امتحان.

خسارة الآخرة: حين تسقط الأقنعة

كل خسارات الدنيا قابلة لشيء من التعويض ما دام الإنسان حياً: يستطيع بعد الفقر أن يغتني، وبعد المرض أن يعافى، وبعد الخطأ أن يتوب، وبعد الضلال أن يهتدي. أما خسارة الآخرة فهي الخسارة التي تنتهي عندها فرص الاستدراك.

هناك لا يستطيع الإنسان أن يطلب ساعةً واحدةً من رأس المال الذي بدده. والمرعب أن أمنيته لن تكون قصرًا ولا مألًا ولا عمرًا جديدًا طويلًا، بل رجعةً قصيرة يعمل فيها صالحًا: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۖ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

عند النهاية تتغير أسعار الأشياء. ما كان الناس يتقاتلون عليه يبدو هينًا، وما كانوا يؤجلونه يبدو أثمن من الوجود كله. سجدة واحدة، كلمة صدق، مظلمة تُرد، توبة تُقبل؛ هذه تصبح الأمنيات الكبرى حين ينكشف الميزان.

لكن قيمة الوحي أنه يخبرنا بأسعار النهاية ونحن لا نزال في السوق. لا يتركنا نتعلم الحقيقة بعد فوات القدرة على العمل. سورة العصر صوتٌ آتٍ من عاقبة الطريق، ينادي السائرين في أوله: انتبهوا، إن رأس المال يتناقص، والخسارة أوسع مما ترون، والنجاة ليست فيما يملأ الأيدي بل فيما يعمر القلوب ويثبت في الميزان.

إنها تمنح الإنسان فرصةً نادرة: أن يرى الدنيا بعين الآخرة قبل أن يصل إليها. أن يتخيل لحظة انكشاف الستار، ثم يعود إلى يومه فيرتب أولوياته على ضوء ذلك الانكشاف. فمن استطاع أن يدخل حقيقة الموت والبعث والحساب في قراراته اليومية، لم يعد الأجل مفاجأةً كاملة؛ لأنه عاش متجهًا إليه، لا هاربًا من ذكره.

لا مهرب من الخسر إلا إلى الله

حين تتأمل إحكام الجملة، تشعر أن المخارج الأرضية كلها قد أُغلقت:

(إِنَّ) تؤكد الحقيقة.

(الْإِنْسَانَ) تستوعب الجنس كله.

اللام تشدد الحكم.

(فِي) تحيط به من كل جهة.

(خُسْرٍ) تفتح أمامه خسارة عظيمة غير محدودة بوجه واحد.

فأين يذهب؟

لا يستطيع الهرب من الزمن؛ لأنه يجري في كيانه. ولا يستطيع شراء عمر جديد؛ لأن الأعمار ليست من سلع الأرض. ولا يستطيع الاحتماء بماله؛ لأن المال نفسه يجري عليه حكم الفناء. ولا يستطيع أن يستثني نفسه بادعاء التفوق؛ لأن الآية أدخلت الإنسان كله تحت الحكم.

هنا يبلغ القلب نقطة الانكسار التي تسبق النجاة. حين تسقط أوهام الاكتفاء، يظهر الافتقار الحقيقي إلى الله. فالإنسان لا ينجو بقوته المجردة، ولا بذكائه وحده، ولا بكثرة خبراته؛ ينجو حين يعيد صلاته بمصدر وجوده، فيتحول الزمن من تيار يستهلكه إلى طريق يرفعه.

ليست النجاة أن يوقف خسارة الجسد؛ فالجسد سيمضي إلى أجله. وليست أن يحفظ الأشياء من الفناء؛ فكل ما على الأرض زائل. إنما النجاة أن يستخرج من الفاني زادًا للباقي، وأن يحول اللحظة العابرة إلى عمل يجد أثره عند الله.

وهنا يتبدل معنى الربح كله. الرابح ليس من حافظ على ما لا يمكن الحفاظ عليه، بل من أنفق الزائل في شراء الباقي. ليس من منع عمره من النقص، فهذا مستحيل، بل من جعل نقصان العمر زيادةً في القرب، وذبول الجسد نضجًا للروح، ومرور الأيام بناءً لدار لا يمر عليها الزمن.

إن المؤمن يخسر من عمره كما يخسر غيره في الحساب الدنيوي؛ تمر عليه الأيام ويشيب شعره ويقترب أجله. لكنه لا يكون (في خُسْرٍ)؛ لأن ما يخرج من يده في الدنيا يلقاه أمامه عند الله. كل صلاة أودعها في يوم عابر، وكل رحمة مسح بها وجعًا، وكل حق ثبت عليه، وكل صبر أخفى ألمه عن الخلق ورفعته إلى خالقه، يتحول من زمن فانٍ إلى ثواب باقٍ.

وهذا هو السر الذي ستفتحه كلمة واحدة: (إِلَّا).

بعد الإحاطة يأتي الاستثناء. وبعد الحكم العام تنفتح كوة في الجدار. وبعد أن يرى الإنسان نفسه داخل الخسران، تمتد إليه خريطة الخروج.

لكن (إِلَّا) ليست كلمةً سحريةً تمنح النجاة بالأمان. وراءها بناء كامل للإنسان: (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ). أربعة أركان لا يعيش واحد منها معزولاً عن الآخر: حقيقة تسكن القلب، وخير تتحرك به الجوارح، وحق تتعاهده الجماعة، وصبر يحفظ الجميع من الانهيار.

هكذا لا تنتهي الآية الثانية عند إعلان الخسارة، بل تدفع القلب إلى باب الاستثناء. إنها تهدم وهم الأمان الكاذب لتبني أمانًا حقيقيًا، وتسلب الإنسان ثقته بما يفنى كي ترده إلى ما يبقى.

فليس أشد الناس خسارةً من سمع الحكم فحزن؛ بل من سمعه ولم يشعر أنه يعنيه.

وليس أقربهم إلى النجاة من ادعاها؛ بل من ارتجف قلبه للسؤال: هل تحققت في شروطها؟

وبين (أَلْفِي خُسْرٍ) و (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا) تقف الإنسانية كلها: فريقٌ يبدد عمره وهو يحسب أنه يجمع الحياة، وفريقٌ عرف أن الوقت لا يُحفظ، وإنما يُنقذ بالإيمان.

هناك، عند عتبة الاستثناء، تبدأ ولادة الإنسان من جديد.

الفصل الثالث

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا... ولادة المعنى من قلب الانهيار

بعد أن أحاطت الجملة بالإنسان من كل جهة: زمنٌ ينقضي، وعمرٌ يتناقص، وخسرانٌ يبتلع من لم يتدارك نفسه؛ جاءت كلمة واحدة كأنها شقٌّ من النور في جدار مغلق: ﴿إِلَّا﴾.

ما أعجب هذه الكلمة في موضعها! فلو انتهت السورة عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾، لظل الحكم كسماء ثقيلة لا منفذ فيها، ولغدا الزمن طريقاً يقود حتماً إلى الإفلاس الوجودي. لكن الرحمة الإلهية لا تكشف للإنسان هالويةً إلا وتدله على الجسر، ولا تعرّفه بمرضه لتتركه نهباً للوجع، بل لتوقظ فيه إرادة الشفاء.

إن ﴿إِلَّا﴾ ليست استدراكاً صغيراً في أطراف الجملة؛ إنها محور السورة، والحد الفاصل بين حياتين ومصيرين. قبلها إنسان يذوب في الزمن، وبعدها إنسان يحول الزمن إلى زاد. قبلها عمر يُستهلك، وبعدها عمر يُستثمر. قبلها مرورٌ ينتهي بالفقد، وبعدها عبورٌ ينتهي باللقاء.

والفارق بينهما ليس في عدد السنين؛ فقد يعيش الخاسر طويلاً، ويموت الناجي شاباً. وليس في سعة الممتلكات؛ فقد تملأ الدنيا يد الخاسر، ويخرج الناجي منها قليل المتاع. الفارق في الصلة بالحقيقة: هذا عاش داخل عالم ينتهي عند

حدود حواسه، وذلك رأى بالوحي أن وراء المشهد مشهداً، ووراء الحساب حساباً، وأن الحياة ليست مادة تُستهلك، بل أمانة تُؤدى.

الاستثناء الذي يعيد تعريف الإنسان

لا تقول السورة إن الإنسان ينجو لمجرد كونه إنساناً، ولا لأنه يملك عقلاً أو حضارة أو قدرة على الإنتاج. فالإنسانية في صورتها المجردة واقعة تحت حكم الخسر، حتى تدخلها حقائق الإيمان والعمل والحق والصبر.

وهذا من أعمق التصحيحات القرآنية لوهم الإنسان عن نفسه. فقد يظن أن مجرد تقدمه العلمي يضمن له الرشد، وأن اتساع معرفته بالطبيعة يعني بالضرورة معرفته بكيفية العيش. لكنه قد يعرف تركيب الذرة ولا يعرف كيف يطهر قلبه من الحقد، وقد يقيس أعماق البحار ويعجز عن قياس هاوية الطمع في نفسه، وقد يرسل مركبةً إلى الكواكب ثم لا يستطيع أن يرسل كلمة رحمة إلى قلب قريب منه.

العلم يمنحه القدرة، لكنه لا يمنحه وحده البوصلة. والعقل يفتح له أبواب الوسائل، لكنه إذا انقطع عن الوحي قد يحتار في الغايات. أما الإيمان فيجيب عن السؤال الذي لا تجيب عنه الآلة: ماذا ينبغي أن نصنع بما نستطيع أن نصنعه؟

فالإنسان لا ينجو بكثرة أدواته، بل بصحة وجهته. والسفينة القوية لا تنفع إذا كان ربانها لا يعرف الميناء، والخريطة الدقيقة لا تنقذ من اختار الطريق الخطأ. لهذا يبدأ الاستثناء بإعادة بناء المركز الداخلي: (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا).

قبل العمل، وقبل التواصل، وقبل الصبر: الإيمان.

ليس لأن الإيمان يغني عن العمل، فالآية ستعطف العمل عليه مباشرةً، بل لأن العمل يحتاج إلى أصل يمنحه وجهته وقيمه وثباته. قد تتحرك الجوارح كثيرًا، ولكن الحركة بلا قبة تستهلك العمر ولا تبنيه. والإيمان هو القبة الباطنة التي تنتظم حولها حركة الحياة.

﴿الَّذِينَ﴾... النجاة لها جماعة

جاء الموصول جمعًا: ﴿الَّذِينَ﴾.

لم تقل السورة: إلا الذي آمن، مع أن مسؤولية الإنسان فردية، وإنما رسمت النجاة في صورة جماعة. فالإيمان يبدأ في أعماق الفرد، لكنه لا يكتمل في عزلة مغلقة. لا بد من قلوب تتعارف على الحق، وأيدٍ تتعاون على العمل، وألسنة تتواصى، ونفوس يسند بعضها بعضًا حين يطول الطريق.

إن الخسران قد يجعل الإنسان وحيدًا ولو كان بين الملايين؛ لأنه يقطع صلته بالله، ثم يقطع صلته الصادقة بنفسه وبالناس. أما الإيمان فيعيد نسج العلاقات على أساس جديد: أخوة لا تقوم على المنفعة وحدها، ومحبة لا تنتهي حين تتعارض المصالح، ونصيحة لا يقصد بها صاحبها التفوق، بل النجاة المشتركة.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ جماعة لا يلغي اجتماعها فردية أعضائها، ولا تذيب ضمائرهم في عقل جمعي أعمى. يجتمعون على الحق، ولذلك يبقى لكل واحد منهم

واجب أن يذكر الآخرين إذا نسوا، وأن يقومهم إذا مالوا. الجماعة المؤمنة ليست صفًا من النسخ المتطابقة، بل أرواحًا حرة وحدها الخضوع لله.

ولعل في صيغة الجمع عزاءً للغريب في زمن الخسران: أنت لست أول من مشى ضد التيار، ولست وحدك في الطريق وإن قلّ الرفاق حولك. لك في التاريخ قافلة ممتدة من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين؛ قافلة لا يجمعها عصر واحد، بل يجمعها إيمان واحد.

كل من قال الحق حين كان الصمت أنفع لدنياه، وكل من صبر على الطاعة حين تهاوت من حوله العزائم، وكل من أصلح خبيئة قلبه بعيدًا عن أعين الناس، هو رفيقك في هذه القافلة، ولو باعدت بينكما القرون.

الإيمان: حين يجد القلب مركزه

ما الإيمان الذي يبدأ به الخروج من الخسر؟

ليس مجرد معلومة ذهنية عن وجود الله، ولا لفظًا يمر على اللسان، ولا بطاقة انتماء يحملها الإنسان في مجتمع متدين. الإيمان معرفةً وتصديق وإذعان؛ حقيقة تدخل القلب فتغير مركز الجاذبية فيه، ثم يظهر أثرها على العمل والاختيار والنظر إلى الوجود.

إنه أن يعرف الإنسان أنه لم يأتِ إلى هذه الحياة صدفةً عمياء، ولم يُترك فيها بلا هدى، وأن له ربًّا خلقه بعلم وحكمة، وأحاط به رحمةً وقدرًا، وأرسل إليه الوحي لنلا يضل في متاهة الظنون، وأن الطريق — مهما التوى — ينتهي إلى الوقوف بين يديه سبحانه.

حين يستقر هذا المعنى في القلب، لا تزول مشكلات الحياة كلها، لكنها تتغير في الوعي. يظل الألم أَلَمًا، والفقد فقدًا، والظلم موجعًا؛ إلا أنها لا تبقى حوادث مبعثرة في كون أبكم. تدخل في أفق الحكمة والابتلاء والجزاء، فيقدر القلب على حملها من غير أن ينكسر تحت عبثيتها.

أشد ما يرهق النفس ليس الألم وحده، بل الألم الذي لا تجد له معنى. فإذا آمن الإنسان أن حياته معلومة عند الله، وأن وجعه لا يغيب عن علمه، وأن الصبر لا يضيع، وأن المظالم ليست صفحات سقطت من كتاب الكون؛ تسربت إلى روحه قوة لا تمنحها الظروف، لأنها آتية من فوق الظروف.

الإيمان لا يعد المؤمن بأن البحر لن يهيج، بل يمنحه مرساة لا تراها العيون. قد تضطرب حوله الحوادث، لكن في أعماقه نقطة ثابتة: الله حق، ووعده حق، ولقاؤه حق، وما عنده خير وأبقى. وكلما دفعته الأمواج بعيدًا عاد إلى هذه النقطة، كما تعود إبرة البوصلة إلى جهتها بعد كل ارتجاج.

ولهذا كانت سكينة الإيمان غير الراحة التي تصنعها الظروف. راحة الظروف تنهار إذا تغيرت الأسباب؛ أما السكينة فتنبت في القلب وهو وسط العاصفة. ليست غيابًا للألم، بل حضورًا للمعنى؛ وليست بلادة أمام المصيبة، بل يقينًا يمنع المصيبة من أن تتحول إلى فوضى داخل الروح.

قد يبكي المؤمن، ويشتاق، ويتوجع، ويشعر بالضعف؛ فالإيمان لا ينزع عنه إنسانيته. لكنه لا يترك حزنه بلا سماء، ولا دمه بلا دعاء، ولا فُقدَه بلا رجاء في اللقاء. كل شعور عنده يجد طريقًا إلى الله، فلا يصبح الحزن قبرًا مغلقًا، بل نافذة يطل منها القلب على الرحمة.

الإيمان وعلاج قلق الزمن

كان الإنسان في أول السورة يركض خلف الوقت، يخشى أن يفوته شيء من الدنيا. فإذا آمن تغير سؤاله: لم يعد همه الأكبر أن يدرك كل شيء، بل أن يدرك ما خُلق له.

الإيمان لا يزيد ساعات اليوم، لكنه ينقذها من التشتت. يمنحها محورًا تنتظم حوله. يعرف المؤمن أن ما قُدِّر له لن يفوته، وأن الرزق لا يُنال ببيع الروح، وأن تأخر بعض الأمنيات لا يعني أن الكون نسيه، وأن قيمته لا يحددها السباق الذي صنعه الناس.

فيهدأ ذلك الركض المحموم الذي لا غاية له.

ليس معنى هذا أن يتوقف عن السعي؛ فالإيمان الحق يوقظ الإرادة ولا يخدرها. لكنه يسعى بقلب لا يعبد النتيجة. يأخذ بالأسباب لأنها من التكليف، ثم يسلم الثمرة لله لأنها من القدر. فلا يتحول فشله إلى تعريف نهائي لنفسه، ولا نجاحه إلى صنم يتعالى به على الناس.

إن أكثر القلق ينشأ من محاولة الإنسان أن يسيطر على ما لم يُعط السيطرة عليه: المستقبل، والنتائج، وقلوب الناس، وتقلبات الأيام. يريد ضمان الطريق كله قبل أن يخطو، ويطلب من الغد أن يكشف له أسرارَه، ثم يتعب لأنه يحاول حمل زمن لم يصل بعد.

أما الإيمان فيعيد توزيع الأعباء: عليك صدق النية، وصواب العمل، وبذل الوسع؛ وليس عليك أن تُكره القدر على الصورة التي تريدها. لك السعي، والله

التدبير. لك الدعاء، والله الاختيار. لك أن تطرق الباب، وليس لك أن تحدد بأي هيئة تأتي الإجابة.

وهذا لا يقتل الطموح، بل يطهره من العبودية. تستطيع أن تريد الشيء من غير أن تجعل سلامك النفسي رهينةً له، وأن تسعى إليه من غير أن تفقد نفسك إذا لم تصل. لأنك تعلم أن خسارة رغبة ليست خسارة وجودك، وأن عطاء الله قد يأتي في صورة منع، وأن الحكمة أوسع من اللحظة التي تقيس بها الأحداث.

قبل الإيمان، يظن الإنسان أن الوقت خصم يسرق منه فرصه. وبعد الإيمان، يراه ميدانًا يلقي فيه الله بأعماله. تتحول الشيوخة من علامة فناء محض إلى اقتراب من اللقاء، ويتحول الماضي من سجن للندم إلى مدرسة للتوبة، ويتحول المستقبل من كتلة مخيفة إلى غيب مستودع في علم الرحيم. الإيمان لا يوقف الساعة، لكنه ينزع منها سلطان الرعب.

الإيمان واسترداد الذات

يعيش الإنسان المقطوع عن الوحي موزعًا بين مرايا الآخرين. كل مرآة تعطيه صورةً مختلفة: المجتمع يقيسه بما يملك، والسوق بما ينتج، والمنصة بما يجذب من انتباه، والخصوم بما يعجز عنه، والمحبون أحيانًا بما يتوقعونه منه. فإذا صدق هذه المرايا كلها لم يعد يعرف وجهه الحقيقي.

أما الإيمان فيرده إلى مرآة واحدة لا تكذب: ميزان الله.

هناك لا تكون قيمة الإنسان في شكله، ولا في عدد متابعيه، ولا في لقبه، ولا في قوته، بل في تقواه وصدق قلبه وصالح عمله. قد يجهله أهل الأرض، وهو عند الله معروف. وقد يخذله التصفيق، لكن الله يرى جهاده الصامت. وقد يُساء فهمه، ويبقى قصده معلوماً لمن لا تخفى عليه خافية.

وهذه المعرفة تحرر النفس من التسول العاطفي أمام أبواب الناس. لا يعود الإنسان محتاجاً إلى أن يثبت وجوده في كل مجلس، ولا إلى أن ينتصر في كل نقاش، ولا إلى أن يشرح نفسه لكل من أساء الظن به. يكفيه أن يكون صادقاً مع الله، وأن يصحح خطأه حين يخطئ، ثم يمضي من غير أن يجعل رضا الخلق معبوده الخفي.

ليس الاستغناء عن ثناء الناس قسوةً عليهم، بل رحمة بالنفس وبهم. فالذي لا يطلب من الناس أن يمنحوه قيمته يستطيع أن يحبهم من غير ابتزاز، وأن يخدمهم من غير انتظار مقابل، وأن ينصحهم من غير رغبة في السيطرة. أما الذي يستمد قيمته منهم فيحبهم ما داموا يغذون صورته، فإذا خالفوه تحولت محبته إلى خصومة.

الإيمان يعيد الإنسان إلى نفسه لأنه يرده إلى خالقه. ومن عرف لمن ينتمي، عرف من يكون.

من المعرفة إلى الوجود

قال تعالى: ﴿آمَنُوا﴾، ولم يقل: علموا.

فالعالم قد يقف عند باب القلب، أما الإيمان فيدخل ويعيد ترتيب البيت. كم من حقيقة يعرفها الإنسان ولا يعيش بها! يعرف أن الموت آتٍ، ثم يؤجل كأنه خالد. يعرف أن الرزق من الله، ثم يبيع مبادئه خوفاً من الفقر. يعرف أن الناس لا يملكون له ضرراً ولا نفعاً استقلالاً، ثم يضطرب قلبه أمام نظراتهم.

المسافة بين المعرفة والإيمان هي المسافة بين أن ترى الطريق على الخريطة وأن تمشي فيه. المعلومة تخبرك بوجود الجسر، أما الإيمان فيحملك على العبور.

ولهذا لا يقاس الإيمان بكثرة ما يستطيع اللسان أن يقوله عنه فقط، بل بمقدار ما غيَّره في القلب والعمل. ماذا يفعل بك الخوف؟ كيف تتصرف حين تتعارض مصلحتك مع الحق؟ ماذا يبقى من يقينك عندما تتأخر الإجابة؟ هل تستحضر نظر الله حين تغيب عيون الناس؟

هناك تظهر حقيقة الإيمان؛ في المناطق التي لا يصل إليها التصفيق، وعند المفترقات التي يكون للهوى فيها صوت قوي، وفي الساعات التي ينفرد فيها الإنسان بقدرته على المعصية ثم يختار أن يتركها لله.

الإيمان ليس دعوى اللسان وإن كانت كلمة الشهادة بابه، وليس انفعالاً وجدانياً عابراً وإن كان الوجدان من آثاره؛ إنه عهد يعيد تشكيل الحياة. ولذلك عطف القرآن عليه الثمرة بلا فاصل: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

الواو التي تمنع انقسام الإنسان

بين الإيمان والعمل جاءت الواو.

حرف صغير، لكنه يصل الداخل بالخارج، والعقيدة بالسلوك، واليقين بالحركة. كأن السورة ترفض أن ينقسم الإنسان إلى قلب يدعي الطهر ويد تمارس الفساد، أو إلى لسان يتحدث عن الحق وحياة لا تشهد له.

الإيمان الذي لا يلد عملاً يظل دعوى معرضةً للذبول، والعمل الذي ينقطع عن الإيمان قد يتحول إلى حركة بلا قبلة، أو إلى صناعة للسمعة، أو إلى بناء دنيوي لا يتجاوز صاحبه إلى الأبد.

الواو تجمعهما: {آمَنُوا وَعَمِلُوا}.

فلا رهبانيةً تنسحب من الحياة بحجة صفاء الروح، ولا ماديةً تستغرق في العمل وتنسى الله. الإنسان القرآني قلب ساجد ويد عاملة، روح تتصل بالسماء وقدمان تمشيان في الأرض. كلما صح باطنه تحسن ظاهره، وكلما عمل بجوارحه ازداد إيمانه رسوخاً.

إن العمل الصالح هو الإيمان حين يصير مرئياً. هو الرحمة بعد أن تغادر الشعور إلى يد تمسح جرحاً، والعدل بعد أن يخرج من الكتب إلى موقف يكلف صاحبه، والتوكل حين يتحول من عبارة إلى سكينة عند اضطراب الأسباب، والتوبة حين تظهر في ترك الذنب ورد الحقوق وتغيير الطريق.

ما أسهل أن يحب الإنسان الخير في خياله، وما أصعب أن يدفع ثمنه في الواقع. قد يتأثر بمشهد الفقير، لكن العمل يبدأ حين يقطع من ماله. وقد يعظم

الصدق، لكن امتحانه يبدأ حين يضره الصدق. وقد يتحدث عن التسامح، لكن حقيقته تظهر حين يملك القدرة على الانتقام.

الإيمان يعطي القيمة، والعمل يقدم البرهان.

لماذا قال: ﴿الصَّالِحَاتِ﴾؟

لم يقل النص: وعملوا، وسكت؛ لأن الحركة وحدها ليست معيارًا. لا بد أن يكون العمل صالحًا. وليس كل ما أعجب النفس أو استحسنته المجتمع صالحًا في ميزان الله. صلاح العمل يبدأ من موافقته للحق، وإخلاص القصد فيه لله، وما يثمره من خير مشروع.

وفي لفظ ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ إحياء بالإصلاح في مقابل الفساد. فالعمل الصالح لا يبني صاحبه وحده، بل يرد شيئًا من العالم إلى موضعه الصحيح: يطعم جائعًا، ويعلم جاهلًا، وينصف مظلومًا، ويصل رحمًا، ويمنع أذى، ويقول كلمة ترفع المعنى بدل أن تهدمه.

حتى العبادة الخاصة تصلح شيئًا في الإنسان؛ فالصلاة تعيد ترتيب اليوم حول ذكر الله، والصيام يعيد الإرادة إلى مقام القيادة بعد أن كادت تصير تابعة للشهوة، والزكاة تصلح صلة المال بالقلب والمجتمع، والذكر يصلح ما أفسده الضجيج في الداخل.

وجاءت ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ جمعًا، لأن الخير ليس بابًا واحدًا. الحياة واسعة، وحاجات النفوس مختلفة، ومواقع الإنسان متعددة. صلاحه مع الله لا ينفصل

عن صلاحه مع الناس، وعبادته لا تعفيه من أمانته، وصدقه في المسجد
يتمتحن في السوق والبيت والخصومة.

قد يكون صالحًا في محرابه، لكنه قاسٍ في أسرته؛ أمينًا في المال، لكنه ظالم
في الكلمة؛ كثير النوافل، لكنه يحمل كبرًا يحتقر به الخلق. والسورة تدعو إلى
بناء متكامل، لا إلى فضيلة منفردة تستر وراءها عيوبًا كبيرة.

ليست الصالحات عددًا من الحركات المبعثرة، بل هندسة للحياة على مراد
الله.

صلاح العمل يبدأ من السر

قد يعمل اثنان العمل نفسه، ويكون بينهما في الميزان بُعد بعيد. كلاهما أعطى،
لكن أحدهما أراد وجه الله، والآخر أراد صورته في أعين الناس. كلاهما تكلم
بالحق، لكن أحدهما نصح رحمةً، والآخر أراد أن يهزم خصمه. صورة العمل
واحدة، أما روحه فمختلفة.

إن النية ليست تفصيلًا خفيًا قليل الأثر؛ إنها الجهة التي يسافر إليها العمل. وقد
يبلغ الفعل أعين الناس فيكبر عندهم، لكنه لا يجاوز صاحبه عند الله إذا خلا
من الإخلاص. وقد يكون العمل صغيرًا لا يلتفت إليه أحد، لكن صدقه يحمله
إلى مقام عظيم.

وهنا يحرر الإيمان العمل من سوق الشهرة. لا يعود المؤمن محتاجًا إلى شاهد
بشري على كل خير يصنعه. يستطيع أن يزرع في الخفاء، وأن يفرح لأن الله

يعلم وإن لم يعلم الناس. بل ربما وجد في الخبيئة لذة لا يجدها في العلن؛ لأنها منطقة خالصة بين العبد وربّه، لم تدخلها أعين الخلق فتزاحم وجهته.

إن العالم المعاصر يدفع الإنسان إلى تحويل كل شيء إلى عرض، حتى الخير. قد لا يكفيه أن يصنع المعروف؛ يريد أن يراه الناس وهو يصنعه. ومع الزمن قد يصبح التوثيق أهم من الفعل، والصورة أوسع من الحقيقة. أما الإيمان فيعيد إلى العمل سرّه، وإلى النفس خلواتها التي لا تسكنها الجماهير.

ليس المقصود ترك إعلان الخير مطلقاً؛ فقد يكون في إظهاره قدوة أو تحفيز، وإنما الخطر أن يعيش العمل على نظرات الناس، فإذا غابت مات. العمل الصالح الحق يستطيع أن يتنفس في الظلام؛ لأن صلته بالسما لا تحتاج إلى أضواء الأرض.

الصالحات وترميم الإنسان

كل عمل صالح لا يغير العالم الخارجي فحسب؛ إنه يعيد بناء صاحبه. حين تصدق مرة في موضع مكلف، تصبح أكثر قدرة على الصدق في المرة التالية. وحين تقاوم غضبك، تسترد جزءاً من سيادتك على نفسك. وحين تعطي مما تحب، ينكسر في قلبك شيء من سلطان المال.

العمل يكتب أثره في الفاعل قبل أن يكتبه في الخارج. من يرحم يتشكل قلبه بالرحمة، ومن يعدل ينمو فيه العدل، ومن يكرر الخيانة يصنع في داخله خائناً ولو نجا في كل مرة من العقوبة. نحن لا نفعل الأفعال ثم نغادرها كما كنا؛ إن أفعالنا تعود إلينا وتشارك في تكويننا.

ولهذا كان العمل الصالح طريقًا للخروج من الخسر؛ لأنه يمنع الزمن من المرور على الإنسان بلا بناء. كل طاعة لبنة، وكل مجاهدة للنفس استرداد لمساحة احتلها الهوى، وكل إحسان إضافة إلى المعنى الذي سيبقى حين تسقط الأشياء.

قد لا يرى المؤمن ثمرة عمله فورًا. يربي طويلًا ولا يرى أثر التربية، ويقول كلمة الحق فترفض، ويزرع الخير في أرض تبدو قاحلة.

لكن القيمة ليست محصورةً في النتيجة العاجلة. يكفيه أولًا أنه أطاع الله، وأن العمل أصلح شيئًا في قلبه، وأن البذرة أودعت في علم من لا يضيع عنده شيء.

إن عبادة النتائج من صور الخسران المعاصر. يريد الإنسان لكل جهد أثرًا سريعًا قابلاً للقياس، فإذا لم يره عدّ العمل فاشلاً. لكن بعض أعظم الأعمال ينمو تحت سطح التاريخ، وقد يموت صاحبه قبل أن يرى الثمرة. الأنبياء أنفسهم لم تكن قيمة دعوتهم بعدد من استجاب فورًا، بل بصدق البلاغ والقيام بالأمانة.

المؤمن يزرع لأنه مأمور بالزرع، ويسأل الله الثمرة. فإن رآها حمد، وإن غابت عنه لم يندم على الخير.

من صلاح النفس إلى صلاح العالم

قد يُفهم الإيمان أحيانًا على أنه رحلة داخلية خاصة، ينشغل فيها الإنسان بنجاته الفردية ويترك العالم لجراحه. لكن سورة العصر تهدم هذا الانكماش.

فبعد الإيمان تأتي الصالحات، ثم يأتي التواصي بالحق والصبر. النجاة القرآنية ليست هروباً من الأرض، بل مشاركة في إصلاحها.

المؤمن لا يقول: يكفيني أن يكون قلبي طيباً، بينما يده قادرة على رفع ظلم أو دفع أذى. طيبة القلب التي لا تلد موقفاً عند الحاجة قد تكون راحة نفسية لا فضيلة. فالرحمة إذا لم تتحرك نحو المتألم ظلت إحساساً يدور حول صاحبه.

والعمل الصالح ليس محصوراً في الشعائر، على مركزيتها وجلالها؛ بل يشمل كل خير موافق لشرع الله، من عمارة الأرض، وإتقان العمل، وحفظ الحقوق، وإصلاح العلاقات، وتربية الأجيال، وصيانة الكلمة، ونصرة المظلوم.

إن العامل الذي يتقن عمله أمانةً، والمعلم الذي يفتح عقلاً، والأم التي تبني ضميراً، والكاتب الذي يحرس الحقيقة من التزييف، والطبيب الذي يرى في المريض إنساناً لا رقماً؛ كل هؤلاء يقيمون صوراً من الصلاح إذا صحت النيات واستقامت الوسائل.

لا يحتاج العمل الصالح دائماً إلى مشهد بطولي. أكثر الخير الذي يحفظ العالم يقع في أعمال صغيرة لا تصنع ضجيجاً: شخص يفي بوعد، وأب ينصت إلى طفله، وإنسان يكف لسانه عن إشاعة، وموظف يرفض رشوة، وصديق يبقى في ساعة العسر.

العالم لا يقوم بالأبطال الظاهرين وحدهم؛ بل بآلاف الأمناء المجهولين الذين يسد كل واحد منهم ثغرة صغيرة من الفساد.

الإيمان بين الخوف والسكينة

قد يظن بعض الناس أن الإيمان يلغي القلق كله، فإذا شعر المؤمن بالخوف أو الحيرة اتهم نفسه بضعف اليقين. لكن القلب البشري ليس حجرًا، والإيمان لا يلغي طبيعته. لقد خاف الأنبياء، وحزنوا، وضائق صدورهم، وبكوا؛ غير أن مشاعرهم لم تقطعهم عن الله، بل صارت طريقًا إليه.

الفرق ليس أن المؤمن لا يخاف، بل أنه يعرف إلى من يذهب بخوفه. ولا أنه لا يحزن، بل أن حزنه لا يقنعه بأن الرحمة انتهت. ولا أنه لا يحتار، بل أن الحيرة لا تدفعه إلى خيانة ما علم من الحق.

السكينة ليست سطحًا لا تتحرك عليه الأمواج، وإنما عمق لا تصل إليه العاصفة كاملة. قد تضطرب الطبقات العليا من النفس، ويبقى في القاع يقين هادئ: لن يضيعني الله.

وكلما نزل الإيمان من العقل إلى القلب، أصبح هذا اليقين أرسخ. لا يعود الإنسان يردد العبارات ليقنع نفسه فقط، بل يبدأ يرى آثار أسماء الله في حياته: لطفًا ظهر بعد شدة، ومنعًا كشف الزمن أنه حماية، وبابًا أغلق ليفتح ما هو أصلح منه، وقوة وُلدت في موضع كان يظن أنه سينهار فيه.

الإيمان ليس أن تفهم كل ما يفعله القدر؛ بل أن تثق بربك حين لا تفهم. فالطفل قد لا يدرك حكمة الطبيب، لكنه يهدأ إذا رأى يد أبيه. والمؤمن لا يحيط بحكمة الله — تعالى الله عن أن يحيط به علم مخلوق — لكنه يعرف من نصوص الوحي وآثار الرحمة ما يجعله يسلم لله، ويرجو الخير فيما خفي وجهه.

النجاة ليست عصمةً من السقوط

{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا} لا تعني أن الناجين لا يخطئون. فالإيمان لا يحول الإنسان إلى مَلَك، ولا يعصمه من ضعف أو غفلة. إنما يمنحه طريق العودة كلما زلّ، وميزانًا يعرف به انحرافه، وقلبًا لا يطمئن إلى البعد.

الخاسر قد يذنب، ثم يعيد تعريف الذنب حتى يعيش معه مرتاحًا. أما المؤمن فيذنب فيبقى في داخله نور يطالبه بالرجوع. وقد يطول به الطريق، لكنه لا يجعل العثرة وطنًا.

التوبة ليست هامشًا في حياة المؤمن؛ إنها من أعظم أعمال الإيمان. بها يمنع خطأ الأمس من أن يبتلع الغد. لا يستطيع إعادة اللحظة التي عصى فيها، لكنه يستطيع أن يغير معناها: كانت بابًا إلى البعد، فإذا ندم ورجع صارت سببًا في انكسار قلبه ومعرفته بضعفه وافتقاره.

حتى الخسارة الجزئية يمكن أن تتحول بالإيمان إلى ربح. الذنب الذي يورث تواضعًا وتوبةً قد يكون في عاقبته خيرًا من طاعة أورثت عجبًا وكبرًا، من غير أن يعني ذلك استهانةً بالمعصية أو دعوةً إليها. إنما هي رحمة الله التي لا تجعل الماضي قيدًا أبدًا لمن صدق في الرجوع.

ما دام القلب قادرًا على قول: يا رب، فليس الخراب نهائيًا.

بين الإيمان والعمل مسيرة عمر

عطف العمل على الإيمان لا يعني أن الانتقال بينهما يحدث دفعةً واحدة بلا مجاهدة. قد يؤمن الإنسان بالحق، ثم يكتشف أن عاداته القديمة تقاوم هذا

الإيمان، وأن النفس لا تسلم مقاليدها بسهولة. يعرف وجوب الصبر، ثم يغضب. يعرف قيمة الإخلاص، ثم يجد نفسه تلتفت إلى الناس. يعرف فناء الدنيا، ثم يحزن على ما فاتته منها.

هذه الفجوة لا تعالج باليأس، بل بالمجاهدة. الإيمان بذرة، والعمل سقياها، والتكرار الصادق يحول المعرفة إلى طبع راسخ. لا يُطلب من الإنسان أن يبلغ الكمال في يوم، بل أن يبقى صادق الاتجاه، كلما سقط نهض، وكلما رأى عيباً بدأ إصلاحه.

إن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، لكنه لا يرضى لها أن تجعل ضعفها حجة للإقامة. وبين القسوة على النفس والتساهل معها طريق العبودية: تعرف ضعفك فلا تعجب، وتعرف التكليف فلا تستسلم.

المؤمن ليس من انتهت معركته، بل من عرف تحت أي راية يقاتل.

العمر الذي يتحول إلى أثر

في أول السورة كان العصر يأخذ من الإنسان. هنا يبدأ الإنسان المؤمن بتحويل ما يؤخذ منه إلى ما يبقى له. الوقت نفسه الذي كان دليل خسارته يصبح مادة نجاته.

ركعة لا تستغرق دقائق قد تثقل الميزان. كلمة لا تعيش في الهواء إلا ثواني قد تجبر قلباً يذكرها سنين. موقف حق قد يقع في ساعة، لكنه يغير مسار أمة. كتاب يكتبه صاحبه في أعوام محدودة قد يوقظ عقولاً بعد موته بقرون.

هكذا ينتصر الإنسان على فناء الوقت: لا يمنع اللحظة من الرحيل، بل بوضع أثر خالد فيها قبل أن ترحل.

الأعمال الصالحة أو عية يحمل بها الإنسان شيئاً من عمره إلى الآخرة. تذهب الساعة من الحساب، لكن ثمرتها لا تذهب. يفتى الصوت، ويبقى أثر الكلمة. تتحلل اليد التي أعطت، ويبقى عطاؤها في الميزان. يغيب الجسد الذي سجد، وتبقى السجدة شاهدة له.

وما أجمل أن يلقي الإنسان عمره أمامه بعد أن ظن أنه مضى! يجد صلاة الفجر التي قام إليها مثقلاً، والصدقة التي نسيها، والدمعة التي لم يرها أحد، والصبر الذي كتم فيه ألمه عن الخلق، والحق الذي قاله مرتجفاً. يجد أيامه قد تحولت من زمن منقضٍ إلى نعيم مقيم.

ذلك هو الربح الذي لا تدركه مقاييس السوق.

غير أن النجاة لا تكتمل في العزلة

لو انتهت السورة عند ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، لظن المرء أن النجاة مشروع فردي مغلق: أصلح قلبك، واعمل لنفسك، ثم دع العالم لمصيره. لكن السورة لا تسمح بهذا الانفصال.

فالإيمان الذي لا يحمل همّ الحقيقة من حوله معرض لأن يتحول إلى راحة شخصية. والعمل الصالح إذا ظل متفرقاً بلا تواصلٍ قد تحاصره موجات الفساد حتى يضعف. لا يكفي أن تعرف الحق؛ يجب أن تسهم في إبقائه حياً في

ضمير الجماعة. ولا يكفي أن تصبر وحدك؛ تحتاج إلى من يذكرك بالصبر حين يطول البلاء.

لهذا تنتقل السورة من بناء الفرد إلى بناء الرابطة:

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ).

وهنا تخرج النجاة من محراب الفرد إلى ساحة المجتمع. يصبح المؤمن مسؤولاً عن الكلمة التي تحرس المعنى، وعن الأخ الذي قد يسقط إن لم تسنده، وعن الحق الذي يبهت إذا سكت أهله، وعن الصبر الذي لا يبقى حياً إلا إذا تناقلته القلوب.

فلا يكفي أن تحمل مصباحاً في بيتك بينما الطريق يغرق في الظلام. إن من تمام شكر النور أن تدل عليه.

ولا يكفي أن تبلغ الشاطئ وحدك، وأنت ترى أيدي الغرقى تمتد من حولك. إن النجاة التي تصنع في القلب رحمة لا تستطيع أن تكون أنانية.

ومن هنا يبدأ الفصل الأخير: ليس في قلب الفرد وحده، بل بين القلوب؛ في تلك المسافة التي يقول فيها المؤمن لأخيه: لا تنسَ الحق، ولا تترك الطريق، وأنا كذلك محتاج إلى أن تقولها لي.

إنها النجاة حين تتحول من حالة فردية إلى عهد متبادل، ومن يقين ساكن في الضمير إلى جماعة تحمل المعنى وسط عالم يتداعى.

وهناك نكتشف أن الإنسان قد يبدأ طريقه إلى الله وحده، لكنه لا يستطيع أن يحرس العالم وحده.

الفصل الرابع

وَتَوَاصَوْا... النجاة التي لا تكتملٌ وحيداً

لم تنتهِ سورة العصر عند الإيمان، مع أن الإيمان أصل النجاة. ولم تنتهِ عند العمل الصالح، مع أن العمل برهان الإيمان. مضت أبعد من صلاح الفرد إلى يقظة الجماعة، ومن طمأنينة القلب إلى مسؤولية الكلمة، ومن أن ينجو الإنسان بنفسه إلى أن يصير جزءاً من شبكة نجا تتعاهد الحق وتحرس الصبر:

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ).

بهذه الكلمات القليلة تخرج السورة بالمؤمن من عزلته، وتقول له: ليس كافياً أن تعرف الطريق ما دام الذين حولك يوشكون أن يضلوه، ولا أن تمسك بالمصباح لنفسك بينما الريح تطفئ مصابيح الآخرين. إن نوراً لا يتجاوز صاحبه يظل مهبطاً بالانطفاء؛ لأن الظلام إذا استحكم حوله حاصره، ولأن الإنسان — مهما قوي — قد تأتية لحظة يحتاج فيها إلى يد أخرى تحمي شعله قلبه.

إن النجاة في التصور القرآني ليست مركباً فردياً يعبر به الإنسان وحده، تاركاً الخلق للغرق. إنها سفينة تتعاون الأيدي على صيانتها، ويحذر ركابها بعضهم بعضاً من مواضع الخلل. فإذا رأى أحدهم ثقباً لم يقل: ليس هذا موضع

جلوسي؛ لأنه يعلم أن الماء إذا دخل من طرف السفينة لم يسأل عن أصحاب ذلك الطرف قبل أن يعم الجميع.

هكذا تتجاوز سورة العصر أخلاق الانكفاء. لا يكفي أن تقول: أنا مؤمن، وبيتي بخير، وعبادتي قائمة؛ فالحق الذي لا تحرسه في الفضاء العام قد يصل الباطل غداً إلى بابك. والفساد الذي حسبته شأناً بعيداً قد ينشئ عالماً يجد فيه أبنائك صعوبة في معرفة ما كنت تظنه بديهياً.

فالإيمان أمانة، والعمل الصالح إشعاع، والحق رسالة، والصبر حراسة طويلة لهذه الرسالة.

سرّ التواصي

لم تقل الآية: وأوصوا بالحق، بل قالت: ﴿وَتَوَاصَوْا﴾.

والفرق واسع. فالإيحاء قد يصدر من طرف إلى طرف، من ناصح يوجّه ومنصوح يتلقى؛ أما التواصي ففيه مشاركة وتبادل. كل واحد يوصي ويوصى، يذكّر ويحتاج إلى من يذكّره، يحمل أخاه ساعةً ويحمله أخوه ساعةً أخرى.

لا يوجد في جماعة الإيمان إنسان يستغني عن التذكير. العالم يحتاج إلى من يقول له: اتق الله، كما يحتاج الجاهل إلى من يعلمه. والقوي قد يضعف، والثابت قد تزل قدمه، وصاحب البصيرة قد تحجبه لحظة غضب أو مصلحة أو هوى. وكلما ظن الإنسان أنه تجاوز مقام النصيحة صار أشد حاجةً إليها؛ لأن الإحساس بالاستغناء بداية الخطر.

في لفظ (تَوَاصَوْا) تواضع أخلاقي عجيب. لا يقف أحد فوق الجماعة بوصفه مالك الحق الوحيد، ولا يقف الآخرون تحته بوصفهم أوعية فارغة. كلهم عبيد للحق، يأخذونه من الوحي، ثم يرد بعضهم بعضًا إليه. ليست قيمة النصيحة آتية من منزلة قائلها، بل من صدق ما تحمله.

قد تأتي كلمة الحق من صغير إلى كبير، ومن مجهول إلى مشهور، ومن تلميذ إلى أستاذ. والعاقل لا يسأل أولاً: من قالها؟ بل: هل هي حق؟ فالمرأة لا تفقد صدقها لأن اليد التي تحملها متواضعة.

لكن النفس تضيق بالنصيحة؛ لأنها تشعر أن صورتها مهددة. تحب أن ترى كاملة، وأن يكون الخطأ دائماً في جهة أخرى. فإذا جاء من يكشف لها خللاً، انشغلت بالدفاع عن نفسها قبل أن تفحص قوله. قد تفتش في نية الناصح، أو تستخرج أخطاءه، كأن خطاه يمحو خطأها.

أما التواصي فيربي النفس على أن ترى التذكير هدية لا إهانة. فمن ذلك على عيب كان يمكن أن يكبر في الخفاء قد حفظ جزءاً من حياتك، ومن ردك إلى الحق قبل أن تمضي بعيداً اختصر عليك طريق العودة.

وليس الصديق من يحرس رضاك عنه ولو تركك تهلك، بل من يحرسك من نفسك وإن غضبت منه لحظة. المجاملة قد تحفظ دفء اللقاء، لكنها إذا سكنت عن خلل قاتل صارت خيانة مهذبة.

التواصي لا التعالي

مع ذلك، ليست كل كلمة صحيحة تواصياً بالحق. قد يقول الإنسان حقاً بطريقة تخدم كبره أكثر مما تخدم الحق. قد ينصح ليعرض معرفته، أو ليهزم غيره، أو ليصنع لنفسه مقاماً أخلاقياً مرتفعاً. تكون العبارة مستقيمة، لكن الروح التي تحملها ملتوية.

التواصي القرآني ليس قذفاً للحقيقة في وجه المخطئ، بل حملٌ رحيم لها إلى قلبه. إنه يتطلب معرفةً بالحق، وإخلاصاً له، وفقهاً بالنفس التي تُخاطب، واختياراً للوقت واللفظ والطريق. فالدواء الصحيح قد يضر إذا أُعطي بجرعة خاطئة، والكلمة الصادقة قد تُغلق القلب إذا حملتها يد قاسية.

ليس المقصود أن نزيّن الحق حتى يفقد حدوده، ولا أن نوّجل البيان خوفاً من كل انزعاج؛ فالحق قد يكون ثقیلاً مهما لانت العبارة. إنما المقصود ألا نضيف إلى ثقله ثقل نفوسنا، وألا نجعل أخطاءنا في الأسلوب حجةً على المعنى الذي ندعو إليه.

من أراد هداية إنسان لم يتلذذ بإدانتته، ومن أراد إصلاحه لم يفضحه ليبرهن أنه أفضل منه. إنه يرى الخطأ، لكنه يرى وراءه نفساً لها تاريخ من الألم والضعف والالتباس. فيدخل إليها من الباب الذي يمكن أن تستقبل منه النور.

إن بعض الناس يربح المناقشة ويخسر الإنسان. يثبت أن حجته أقوى، ثم يترك في قلب خصمه جرحاً يجعله أشد نفوراً من الحق. وهذا نصرٌ للذات، لا للرسالة. فالحق لا يحتاج إلى كبريائنا كي ينتصر؛ بل قد يكون كبرياؤنا من أكبر الحجب بينه وبين القلوب.

وفي قوله: ﴿تَوَاصَوْا﴾ إحياء بالاستمرار؛ فليست النصيحة حادثةً عارضة تقع مرةً ثم تنتهي. إنها مناخ تعيش فيه الجماعة: تتعاهد وجهتها، وتراجع مسيرتها، وتعيد كلمات الحق إلى التداول كلما حاول الضجيج طمسها.

فالقلوب تنسى، والفتن تتجدد، والباطل لا يطرق الباب بالصورة نفسها كل مرة. ما كان واضحًا لجيل قد يصبح ملتبسًا عند جيل آخر، وما كان مستنكرًا قد تعيد العادة تشكيله حتى يبدو طبيعيًا. لذلك يحتاج الحق إلى ذاكرة حية لا تكتفي بوجوده في الكتب، بل تحمله الألسنة والقذوات والمواقف.

لماذا الحق؟

قال تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾.

والحق كلمة قصيرة، لكنها من أوسع كلمات الوحي. تدخل فيها حقيقة الإيمان بالله، وما أنزله من هدى، وما شرعه من عدل، وما أمر به من عبادة، وما أقامه من موازين تفرق بين الخير والشر، والهدى والضلال، والعدل والظلم.

الحق ليس فكرةً يصنعها الإنسان حين يشاء ثم يعيد تشكيلها على مقاس مصلحته. إنه سابق على أهوائنا، وحاكم عليها. قد نعرفه أو نجهله، نقبله أو نرده، لكنه لا يستمد حقيقته من تصويتنا عليه. الشمس لا تصبح ظلامًا لأن قومًا أغمضوا أعينهم، والميزان لا يصير ظالمًا لأن المنحرف ضاق بحكمه.

ومن أزمات الإنسان أنه يريد حقًا يوافقه دائمًا، لا حقًا يصحبه. يقبل من الحقيقة ما يؤيد اختياراته، ثم يؤول أو يهمل ما يطالبه بالتغيير. كأن وظيفة الوحي أن يبارك ما قرره مسبقًا، لا أن يعيد بناء رؤيته وميزانه.

لكن الحق الذي لا يخالف الإنسان مرةً ليس حقاً يهديه، بل مرآة صنعها لهواه. الوحي لا يأتي ليقيم في هامش الحياة، بل ليكون المرجع الذي تُوزن به الحياة. لا يُحاكم إلى تقلبات العصر، وإن كان يُفهم في ضوء لسانه وسياقه ومقاصده، بل يحاكم ما في العصر من أفكار وموازين. فما وافق الحق قُبِلَ، وما خالفه رُدَّ، ولو زخرفته الأسماء واحتشد له التصفيق.

إن الزمن يغيّر أزياء الباطل، لكنه لا يغيّر حقيقته. قد يظهر الظلم قديماً في صورة سوط، ويظهر حديثاً في صورة نظام شديد الأناقة؛ لكنه يظل ظلماً. وقد يلبس الاستعباد ثوب الحرية، ويتخفى الجشع في لغة التنمية، ويقدم الانحلال نفسه بوصفه تحرراً من القيود. هنا يحتاج الإنسان إلى حق لا يسحره الطلاء.

الحق واحد والأهواء متفرقة

جاء الحق مفرداً معرّفاً: (بِالْحَقِّ)؛ لأن مرجعه في أصله واحد، وإن تعددت شعبه وتطبيقاته. أما الباطل فطرق متفرقة، يجمعها الابتعاد عن الصراط وإن اختلفت جهاتها.

الحق يجمع الإنسان؛ لأنه يعيد عقله وقلبه وجوارحه إلى مركز واحد. أما الهوى فيمزقه: شهوة تسحبه، وخوف يرده، ومصلحة تغير موقفه، ونظرة الناس تعيد تشكيل لغته. يعلن اليوم مبدأً ثم ينقضه غداً لأن موقعه تغير، لا لأن الحقيقة تغيرت.

ولذلك لا يكون التواصي بالحق ترديدًا للشعارات فحسب، بل تحريرًا مستمرًا للمواقف من عبودية المصلحة. أن تقبل الحق حين يكون لك وحين يكون عليك، وأن تتصف خصمك كما تتصف صديقك، وأن ترد الخطأ ممن تحب كما ترده ممن تبغض.

فالحق لا يصبح باطلاً لأن خصمك قاله، والباطل لا يصبح حقاً لأن حبيبك فعله. والذين يغيرون موازينهم بحسب أسماء الأشخاص لم يتواصوا بالحق، بل تواصوا بالعصية.

إن من أعظم اختبارات الإيمان أن ترى الحق خارج جماعتك فتقبله، وأن ترى الخطأ داخلها فتنكره بميزان العدل والحكمة. فالانتماء قد يكون معيّنًا على الحق، لكنه إذا تحول إلى حجاب يمنع رؤية الحقيقة صار لونًا من ألوان الخسران.

الحق أكبر من الأشخاص، وأبقى من المؤسسات، وأرفع من أن يختصر في تجربة بشرية لا تخلو من نقص. والإنسان الصادق لا يخشى أن يعترف بخطئه؛ لأنه يعلم أن سقوط رأي له لا يعني سقوطه هو، بل ربما كان رجوعه إلى الحق أول انتصاراته الحقيقية.

حين تُستبدل الحقيقة بالقبول

في نفسية الإنسان حاجة عميقة إلى القبول. إنه يخاف أن يُنبذ، وأن يقف وحيداً، وأن يشعر بأن الجماعة لا تراه واحداً منها. وقد يدفعه هذا الخوف إلى أن يقول ما لا يؤمن به، أو يسكت عما يراه حقاً، أو يشارك في خطأ كيلا يكون مختلفاً.

وفي عالم المنصات الرقمية صار القبول قابلاً للعدّ. أرقام تخبر الإنسان في كل لحظة كم شخصاً التفت إليه، وكم شخصاً تجاهله، وكم واحداً وافقه أو أعرض عنه. وبمرور الوقت قد تتسلل هذه الأرقام إلى ميزانه الباطن، فيقيس قيمة الفكرة بانتشارها، وقيمة نفسه بمقدار التفاعل معها.

عندئذ لا يعود يبحث عن الحق، بل عما يُكافأ عليه اجتماعياً. يكتب ما يجلب التصفيق، ويخفي ما قد يكلفه شيئاً من حضوره. وقد يظن أنه يستخدم الجمهور، بينما الجمهور يعيد تشكيله بصمت.

التواصي بالحق مقاومة لهذا الاستعباد. إنه إعلان أن الحقيقة لا تُنتخب، وأن العدد لا يخلق القيمة. قد يكون الرأي شائعاً لأنه يوافق الهوى، وقد يكون الحق غريباً لأنه يحمل الناس كلفة التغيير.

لكن هذا لا يعني ازدراء الناس، ولا اتخاذ قلة الأتباع دليلاً آلياً على الصواب؛ فالباطل قد يكون غريباً أيضاً. المعيار ليس الكثرة ولا القلة، بل الدليل والميزان الذي أقامه الوحي. غير أن المؤمن لا يسمح للكثرة أن تعفيه من التفكير، ولا للوحدة أن تجبره على الخيانة.

أن تقف مع الحق لا يعني أنك لا تخاف؛ بل قد يعني أنك اخترت ألا تجعل الخوف إلهاً يحدد موقفك.

الحق الذي يبدأ من النفس

من السهل أن يحمل الإنسان الحق إلى الآخرين، ومن الأصعب أن يدخله إلى المواضيع المغلقة في نفسه.

قد يتوصى الناس بالحق في الشأن العام، ثم يتجنب كل واحد منهم الحقيقة التي تمس كبريائه أو عاداته. يتحدث عن عدل الحكام، ولا يعدل بين أبنائه. يندد بخيانة الأمانة، ثم يستهين بوقت العمل. يطالب المجتمع بحرية الكلمة، لكنه لا يحتمل كلمة صادقة من زوج أو صديق.

والحق لا يتجزأ بهذه الانتقائية. من أراد أن يكون من أهله فعليه أن يسمح له بالدخول إلى بيته وقلبه ومصالحه. لا أن يستخدمه سيفاً على الناس، ثم يرفض أن يكون ميزاناً على نفسه.

أول التواصي بالحق أن يتوصى الإنسان وقلبه: يذكره إذا غفل، ويكشف له حيله، ولا يسمح له بتزيين الهوى. فالنفس تملك بلاغةً عجيبة في الدفاع عن رغباتها، وقد تحول الرغبة إلى ضرورة، والانتقام إلى عدل، والهرب إلى حكمة.

لا بد من لحظات صدق يسأل فيها المرء نفسه بلا جمهور: هل أطلب الحق أم أطلب أن أكون أنا المنتصر؟ هل رفضت هذه الفكرة لضعف دليلها، أم لأنها صدرت ممن لا أحب؟ هل سكتُ رحمةً وحكمة، أم خوفاً على مصلحتي؟ هل أنصح هذا الإنسان إنقاذاً له، أم أعاقبه تحت اسم النصيحة؟

هذه الأسئلة مؤلمة؛ لأنها تنزع عن النفس زينتها. لكنها جزء من النجاة؛ فما لم يدخل الحق إلى مناطق الظل في الداخل، ظل الإنسان قادراً على ممارسة الباطل باسم أجمل مبادئه.

لماذا أُعيد فعل التواصي؟

لم يقل القرآن: وتواصوا بالحق والصبر، بل كرر الفعل: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

والتكرار يمنح كل واحد منهما استقلالاً في العناية، ويكشف أن الصبر ليس تابعاً هامشياً للحق، بل وصية قائمة بذاتها. فالحق يحتاج إلى بيان، ثم يحتاج إلى قوة تحمله. قد يعرف الإنسان الحق بوضوح، لكنه يتركه عند أول ألم. وحينئذ لا يكون عجزه في المعرفة، بل في احتمال كلفة المعرفة.

كم من إنسان رأى الطريق ثم رجع؛ لا لأنه اكتشف أنه باطل، بل لأنه اكتشف أنه شاق. وكم من مبدأ عاش في الكلام، فلما جاء الامتحان مات في السلوك. هنا تظهر ضرورة الوصية الثانية: لا يكفي أن تعرفوا الحق؛ تواصوا أيضاً بالقوة التي تُبقيكم عليه.

إن تكرار ﴿تَوَاصَوْا﴾ يوحي بأن للصبر لحظاته الخاصة، وكلماته الخاصة، ومجالسه التي تتعاهد النفوس فيه. قد يحتاج الإنسان إلى من يعلمه الحقيقة، لكنه بعد أن يعلمها يحتاج إلى من يقول له: اثبت. الأول يضيء الطريق، والثاني يمسك بيده حين تدمى قدماء.

الحق بلا صبر قد يصير فكرةً جميلة لا تعيش في العالم. والصبر بلا حق قد يصير عناداً على باطل. فإذا اجتمعا صار الحق جهةً، والصبر قوة السير إليها.

الصبر... قوة الروح الطويلة

ليس الصبر خموداً، ولا قبولاً بالذل، ولا تجمداً للمشاعر. إنه قدرة النفس على الثبات في موضع الحق، فلا تحرفها الشهوة، ولا يكسر لها الألم، ولا يستعجلها طول الطريق.

الصبر ليس أن تشعر بأن الجرح لا يؤلم، بل ألا تجعل الألم يقودك إلى ما لا يرضي الله. وليس ألا تشتاق إلى الفرج، بل ألا تبيع الحق من أجل فرج كاذب. وليس أن تتوقف عن تغيير الواقع، بل أن تغيره من غير أن تتشبه بالباطل الذي تقاومه.

إن الصبر في القرآن فعل داخلي شديد الحيوية. هو إمساك النفس على الطاعة، وإمساكها عن المعصية، وإمساكها عند البلاء عن السخط المحرم والانهيار. وفي كل صورة منه معركة لا يراها الناس كاملة.

قد يرون شخصاً ساكناً فيظنون أنه لم يشعر، ولا يعلمون كم كلمة مؤذية حبسها الله. وقد يرون إنساناً يواصل عمله في هدوء، ولا يعرفون أنه يجمع شتات قلبه كل صباح كيلا يسقط. وقد يرون مبتلى يبتسم، فيحسبون أن مصيبتة هينة، وما ابتسامته إلا ثمرة حرب طويلة بين اليقين والوجع.

الصبر ليس غياب الضعف؛ بل انتصار الإنسان عليه كلما ظهر. وليس قوة تُعطى مرة واحدة، بل قرار يتجدد مع كل موجة. قد يصبر المرء اليوم ثم يحتاج غداً إلى من يسنده، ولذلك قالت السورة: ﴿تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

الصبر على الزمن

لما بدأت السورة بالعصر، كان لا بد أن تنتهي بالصبر. فالزمن لا يختبر صحة الأفكار فحسب، بل يختبر قدرتها على البقاء. قد يتحمس الإنسان للخير لحظة، لكن الطريق إلى الثمرة أطول من لحظة الحماس. وقد يرى الحق واضحًا، إلا أن نصره يتأخر، فيبدأ الشك يتسلل إليه من باب الاستعجال.

إن النفس تريد نتائج سريعة؛ لأنها تقيس الأحداث بعمرها القصير. أما حكمة الله فتجري في أقدار أوسع من أعمار الأفراد. قد يزرع جيل ولا يحصد، ويبني أساسًا لا يرى البناء الذي سيقوم عليه. فإذا لم يكن لديه يقين بقيمة العمل في ذاته، وبأن الله لا يضيع أجر المحسنين، تسلل إليه شعور العبث.

التواصي بالصبر يحرر الإنسان من عبودية النتيجة العاجلة. يقول له: لست مكلفًا أن ترى الثمرة كلها، بل أن تؤدي أمانتك في إنضاجها. قد تكون حلقة في سلسلة طويلة، وقيمة الحلقة أنها بقيت متصلة بما قبلها وما بعدها.

كم من كلمات حق قيلت في زمنها فبدت ضعيفة، ثم بقيت تعمل في الضمير حتى غيرت التاريخ بعد رحيل أصحابها. وكم من مواقف ظن الناس أنها هزيمة لأنها لم تربح اللحظة، لكنها ربحت المعنى الذي اهتمت به أجيال.

الزمن الذي يفزع الخاسر لأنه يسلبه، يصير للمؤمن حليفًا يكشف ثباته. فبعض الحقائق لا يظهر معدن أصحابها إلا بعد طول المكابدة؛ كما لا يظهر عطر العود حتى تمسه النار.

الصبر ليس تسويغاً للظلم

قد تُساء قراءة الصبر، فيُطلب من المظلوم أن يصمت كي يستريح الظالم، ومن الضعيف أن يقبل القهر كي يبقى النظام القائم بلا اضطراب. وهذا ليس الصبر الذي عُطف على الحق؛ لأن صبراً ينقض الحق لا يكون هو المراد في الآية.

الصبر على الحق قد يقتضي مقاومة الظلم، وقول الكلمة، وبذل الوسع في تغيير المنكر بالطرق المشروعة. إنه ثبات على العدل، لا تنازل عنه. وقد تكون أشق صور الصبر أن يواصل الإنسان مقاومة الباطل زمناً طويلاً من غير أن تتحول مقاومته إلى حقد أعمى أو ظلم مضاد.

فالحق يحدد للصبر وجهته، والصبر يحفظ الحق من أن ينكسر تحت الضغط. لا صبر على ترك واجب، ولا صبر على خيانة أمانة، ولا صبر بمعنى الرضا الأخلاقي بالباطل؛ وإنما الصبر ألا تدفعك قسوة الواقع إلى فقدان ميزانك.

قد ينتصر المظلوم على ظالمه، ثم يخسر نفسه إذا استباح الظلم حين وصلت القوة إلى يده. عندئذ يكون قد هزم شخصاً، لكنه لم يهزم منطق الظلم. أما الصابر بالحق فيرفض أن يستعير أخلاق خصمه، ولو كانت أسرع الطرق إلى الغلبة.

إن بعض الانتصارات خسران مؤجل، وبعض الثبات الذي يصفه الناس بالهزيمة هو نصر الروح على الفتنة.

الصبر على الطاعة

الطاعة ليست دائماً لحظة وجدانية مشرقة. قد يبدأ الإنسان الصلاة بخشوع، ثم تمر عليه أيام يصلي فيها وهو يجاهد تشتت قلبه. يبدأ طريق القرآن بشوق، ثم تثقل نفسه عن المداومة. يشرع في عمل صالح متحمساً، ثم ينطفئ بريق البداية ويبقى واجب الاستمرار.

هنا يميز الصبر بين من أحب الصورة الجميلة للطريق ومن أحب الطريق نفسه. فالبدايات تحمل لذة الاكتشاف، أما الوفاء فيظهر حين تغيب اللذة ويبقى التكليف.

إن أعظم الأعمال لم تُبْنَ بنوبات الحماس، بل بخطوات صغيرة صبرت على التكرار. صفحة تُقرأ كل يوم، وركعتان يُحافظ عليهما، وخلق يُجاهد الإنسان نفسه عليه، وعلم يُطلب قليلاً قليلاً. لا يصنع النهر اندفاع موجة واحدة، بل جريان الماء الذي لم ينقطع.

والنفس تمل، والشيطان يعد الإنسان ببداية مثالية في وقت مثالي، حتى يترك العمل الممكن انتظاراً لعمل كامل لا يأتي. أما الصبر فيقول: افعل ما تستطيع الآن، واثبت عليه، فإن الطريق يُقطع بالخطوات لا بالأمنيات.

ليس المطلوب أن تكون في كل يوم بأعلى قوتك، بل ألا تقطع الحبل الذي يصلك بالله. قد تضعف قبضتك عليه، وقد تبطئ خطاك، لكن لا تتركه. فالفطور عارض بشري، أما الاستسلام له حتى تنطفئ الصلة فهو الخطر.

الصبر عن المعصية

المعصية تعد بلذة قريبة، وتخفي وراءها ثمنًا بعيدًا. والصبر يعكس قدرة الإنسان على أن يرى أبعد من اللحظة. يقول للنفس: ليس كل ما أستطيعه يليق بي، وليس كل باب مفتوح طريقًا ينبغي أن أدخله.

وفي زمن سهّلت فيه التقنية الوصول إلى الشهوة، صار الصبر معركةً أشد خفاءً. كان الإنسان قديمًا يحتاج إلى خطوات كي يبلغ بعض المحرمات، أما اليوم فقد يحمل أبوابها في جيبه. يكفي أن يخلو بنفسه ويمد إصبعه، ولا يراه أحد من الخلق.

هناك تتجلى حقيقة المراقبة: أن يكون الله أعظم في قلبك من غياب الناس، وأن تنتصر على نفسك في معركة لن يمنحك عليها الجمهور وسامًا؛ لأن أحدًا لم يعلم بها.

هذه الانتصارات السرية من أنقى صور الحرية. كل مرة يقول فيها الإنسان لهواه: لا، يسترد جزءًا من إرادته. قد يتألم من الحرمان العاجل، لكنه يريح نفسه. أما الاستجابة المتكررة فتمنح الجسد لذةً عابرة وتنتزع من الروح قدرتها على القيادة.

الصبر عن المعصية ليس عداءً للفطرة، بل تنظيمًا لها وفق حكمة خالقها. فالدين لا يقتل الرغبات، وإنما يمنعها من أن تتحول إلى طغاة يحكمون الإنسان. الشهوة في موضعها حياة، وإذا خرجت عن ميزانها صارت نارًا تأكل صاحبها.

الصبر على البلاء

هناك أقدار لا يختارها الإنسان: فقد يهبط بلا موعد، ومرض يغيّر نظام الحياة، وخذلان يأتي من جهة كان يظنها مأمّنه، ودعاء يطول انتظار جوابه. في هذه المواطن لا يكون الصبر فكرةً سهلة؛ إنه بناء داخلي تحت القصف.

قد يقول الناس للمبتلى: اصبر، ثم يمضون إلى حياتهم، ويبقى هو وحده أمام الليل الطويل. لكن التواصي الحقيقي بالصبر لا يكتفي بالكلمة؛ إنه حضور ورحمة وحمل لبعض العبء. أن تجلس إلى جوار المتألم من غير أن تحاكم حزنه، وأن تدعه يبكي من غير أن تنتهم إيمانه، وأن تذكره بالله بلطف لا يلغي وجعه.

بعض كلمات المواساة تزيد الجرح؛ لأنها تُقال من مكان بعيد عن الألم. أما الوصية بالصبر فتحتاج قلباً اقترب حتى فهم أن المبتلى لا يريد دائماً تفسيراً، بل يداً تقول له: لست وحدك.

والصبر لا يعني ألا يحزن الإنسان. يعقوب عليه السلام قال: ﴿يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ﴾، وابتضت عيناه من الحزن، وهو نبي كريم. لكنه قال أيضاً: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾. اجتمع الحزن والصبر في قلب واحد؛ لأن الحزن شعور، والصبر موقف من هذا الشعور.

يمكن للعين أن تبكي والقلب راضٍ عن الله، ويمكن للصوت أن يشكو الوجد إلى الله من غير أن يعترض عليه. الشكوى إلى الله عبادة افتقار، أما الشكوى من الله فباب آخر. والفرق بينهما هو الفرق بين قلب يلجأ إلى ربه بألمه، وقلب يجعل الألم حجاباً بينه وبين ربه.

الصبر الجميل

الصبر الجميل لا يعني أن تكون المصيبة جميلة في ذاتها، ولا أن يتلذذ الإنسان بالألم. إنما جماله فيما يحفظه في الروح من إيمان وأدب ورجاء. يمر البلاء بالقلب فلا يحوله إلى قلب قاسٍ، ويُظلم الإنسان فلا يورثه الظلم شهوةً في ظلم غيره، ويُحرم فلا يجعله الحرمان حاسدًا لكل من أُعطي.

هذا هو الانتصار الأصعب: ألا يسمح الإنسان لما حدث له أن يفسد ما بقي فيه.

كم من مجروح صار يجرح، ومخذول صار يخذل، ومظلوم منح نفسه رخصةً دائمةً للقسوة. كأن الألم أقنعه بأن العالم مدين له، وأن من حقه أن يعاقب الأبرياء على ذنب لم يرتكبه.

أما الصبر فيقطع سلسلة الأذى. يقول الإنسان: انتهى الشر عندي، لن أمرره إلى قلب آخر. سأحمل جرح التجربة، لكنني لن أحوله إلى سكين.

هنا يصبح الصبر عملاً حضاريًا، لا فضيلةً فرديةً فحسب. إنه يمنع الألم من أن يتكاثر في المجتمع؛ لأن أكثر الأذى الذي يصنعه الناس قد يكون جراحًا قديمةً لم تُشفَ، فانتقلت من صاحبها إلى غيره.

حين يتوصى الجرحى

لأن كل إنسان يحمل ضعفًا لا يراه الآخرون، كان التواصي بالصبر ضرورة رحيمة. لا يوجد في هذه الحياة من يملك القوة دائمًا. اليوم أذكرك، وغداً

تذكّرني. اليوم أراك على حافة اليأس فأردك إلى الرجاء، وغداً تهتز الأرض
تحتي فتقول لي ما قلته لك.

هذه هي الجماعة المؤمنة: ليست مجموعة أشخاص لا يسقطون، بل أشخاص
لا يتركون الساقط وحده. لا يعيرونه بضعفه، ولا يجعلون من عثرته هويته
النهائية. يفتحون له باب العودة، ويحرسون فيه ما بقي من نور.

ما أشد حاجة الإنسان إلى من يتذكر صورته الصحيحة حين ينساها هو. قد
تأتيه لحظة يرى نفسه من خلال فشله وحده، فيحتاج إلى أخ يقول له: أنت
أوسع من عثرتك. وقد يطول عليه البلاء حتى يظن أن الله تركه، فيحتاج إلى
قلب يقرأ له آثار الرحمة التي حجبها الألم عن عينه.

التواصي بالصبر ليس نقل عبارات محفوظة، بل إعارة اليقين. حين يضعف
يقينك، أهبك شيئاً من يقيني حتى يشفى قلبك؛ وحين أضعف، ترد إليّ ما
استودعتك. هكذا تتقاسم الأرواح قوة الطريق.

الغربة التي لا تتحول إلى وحشة

حين يكون الخسران عالمياً، يصبح التمسك بالحق لوناً من الغربة. يرى
المؤمن مقاييس مقلوبةً ويُطلب منه أن يتكيف معها، ويسمع الباطل يكرر نفسه
حتى يلبس ثوب البديهة. فإذا رفض، قيل له: أنت خارج الزمن.

لكن سورة العصر تعيد تعريف المعاصرة. ليس ابن العصر من يذوب في
تياراته، بل من يفهم امتحانه ويشهد عليه بالحق. قد يعيش الإنسان في زمنه

جسدًا وتقنيَّةً ولغةً، من غير أن يسلم له ضميره. يأخذ من منجزاته ما ينفع، ويرفض أو هامه التي تناقض الوحي.

إن الإيمان لا يطلب من الإنسان أن يسكن الماضي، بل أن يدخل الحاضر بقلب لا يعبد. يتعلم لغته دون أن يفقد لغته الداخلية، ويستخدم أدواته من غير أن تتحول الأدوات إلى سادة، ويفهم أسئلته من غير أن يقبل كل أجوبته.

والغربة الإيمانية ليست عزلةً عن الناس، بل اختلافًا في المرجع مع شدة الرحمة بهم. المؤمن بينهم، يشاركهم أفراحهم، ويخفف آلامهم، ويعمل في دنياهم؛ لكن في قلبه نافذة مفتوحة على الآخرة تمنعه من أن يرى الوجود كما يرونه إذا أغلقوا تلك النافذة.

قد يحزن لقلة الرفاق، لكن (تَوَاصَوْا) تقول له إن الغربة لا يلزم أن تكون وحشة. يكفي أن تلتقي قلوب قليلة على الحق حتى يتكون وطن معنوي في قلب العالم. ليست قيمة الجماعة في كثرتها، بل في صدق ما يجمعها.

ربّ اثنين تعاهدا على الصدق كانا جماعةً في وجه مدينة من الزيف، ورب أسرة صغيرة حفظت الإيمان في بيتها كانت حصنًا في عصر عاصف، ورب أصدقاء أعان بعضهم بعضًا على الطاعة صنعوا جزيرة نجاة وسط بحر مضطرب.

الجماعة التي يحرسها الحق

لا يكفي الاجتماع في ذاته؛ فقد يجتمع الناس على تعصب أو مصلحة أو باطل. القيمة ليست في الجماعة، بل في الحق الذي يحكمها. فإذا صار ولاء الأفراد للجماعة أعلى من ولائهم للحقيقة، تحولت الجماعة من وسيلة نجاة إلى صورة أخرى من الخسران.

الجماعة المؤمنة لا تطلب من أعضائها أن يعطلوا ضمائرهم، بل أن يوقظوها بالوحي. لا تجعل نقد الخطأ خيانة، ولا تغطي الانحراف حفاظاً على صورتها. لأنها تعلم أن الصورة إذا نُجِّيت على حساب الحقيقة، هلك الاثنان معاً.

(تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ) تعني أن الحق فوق الجميع. القائد يُذَكَّر، والعالم يُراجع، والصالح قد يخطئ، والتاريخ البشري يُنصف في فضله ويُنقد في نقصه. فلا عصمة إلا لمن عصم الله، ولا قداسة لتجربة بشرية تمنع الميزان من الوصول إليها.

وحيث تستقبل الجماعة النصيحة بوصفها تهديداً، تكون قد بدأت تحب ذاتها أكثر من رسالتها. أما حين تفتح أبواب المراجعة الصادقة، فهي تثبت أن الحق هو المقصود، لا الانتصار للهوية والشعار.

ومن عظمة التواصل أنه يحمي الناصح أيضاً. فليس واحداً يتكلم دائماً والآخرين يسمعون؛ إنه يدخل معهم تحت الحكم نفسه. من أوصاك بالحق قد يحتاج أن توصيه به في شأن آخر، وبذلك تنكسر صناعة الأصنام البشرية، ويبقى الجميع تلاميذ عند مائدة الوحي.

مجتمع يقوم على التذكير لا الفضيحة

ثمة فرق بين مجتمع يتوأسى ومجتمع يترصد. الأول يرى الخطأ فيحاول إصلاحه، والثاني يراه فيستثمره لإسقاط صاحبه. الأول يحفظ كرامة الإنسان وهو يرد فعله، والثاني يهدم الإنسان كله بسبب فعله.

التواصي لا يلغي المحاسبة، ولا يعني ستر الجرائم التي يجب بيانها ودفع ضررها؛ لكنه يجعل الغاية هي العدل والإصلاح، لا التشفي. حتى حين يقتضي الحق موقفًا حازمًا، يبقى القلب مراقبًا لنيته: هل يريد صيانة المجتمع أم التلذذ بسقوط المخطئ؟

في عصر تحولت فيه الأخطاء إلى مادة للعرض، قد يُحاكم الإنسان أمام ملايين الناس قبل أن تُعرف الحقيقة. تُنتزع كلمة من سياقها، وتُبنى عليها شخصية كاملة، ثم تتسابق الجموع إلى الرجم المعنوي. يشعر كل واحد أنه يدافع عن الفضيلة، بينما قد يكون مشاركًا في ظلم لا يتوقف ليفحصه.

التواصي بالحق أبطأ من الغضب الجماعي؛ لأنه يتثبت، ويعدل، ويفرق بين الخطأ وصاحبه، وبين الزلة والمنهج، وبين النصيحة والتشهير. والبطء هنا ليس ضعفًا، بل احترام لحرمة الإنسان ولجلال الحق.

إن الحقيقة التي تحتاج إلى الكذب كي تنتصر ليست حقيقةً ندافع عنها، والعدل الذي يُقام بالظلم يهدم اسمه بيده.

الصبر في زمن النتائج السريعة

من أعمق أزومات الإنسان المعاصر أنه اعتاد السرعة حتى صار يستثقل كل نمو طبيعي. يريد معرفةً بلا طلب طويل، وجسدًا قويًا بلا تدريب، وعلاقة عميقة بلا وفاء، وإصلاحًا اجتماعيًا بلا تربية أجيال.

لكن الأشياء العظيمة تنمو ببطء. الشجرة التي تصمد أمام العواصف أمضت زمنًا طويلًا تمد جذورها في الظلام. والقلب الراسخ لم يبلغ رسوخه بموعظة واحدة، بل بتجارب وعبادات ومجاهدات متراكمة. والحضارة لا تنهض بخطاب حماسي، بل ببناء الإنسان الذي يستطيع أن يحمل أمانتها.

الصبر يعيد احترام الزمن اللازم للنضج. لا يستعجل الثمرة قبل اكتمال الجذور. يعرف أن الطريق الطويل لا يُختصر دائمًا، وأن بعض المحطات لو قفز الإنسان فوقها وصل ناقصًا.

قد يكون تأخر ما تريد جزءًا من إعدادك له. وربما لم تكن المشكلة أن العطاء غير جاهز لك، بل أنك لم تصبح جاهزًا له. في فترة الانتظار يتغير الإنسان؛ يتخفف من وهم الاستحقاق، ويتعلم الدعاء، ويكتشف دوافعه، ويعرف فقره. فإذا جاءه المطلوب وجده إنسانًا آخر أقدر على حمله.

ولهذا لا يكون الانتظار فراغًا بالضرورة. قد يكون أعمق مراحل التكوين، وإن لم يظهر فيها إنجاز يمكن عرضه.

التواصي بوصفه مقاومةً للنسيان

الإنسان كائن ينسى، لا لأنه يجهل دائماً، بل لأن الحياة تزاحم معارفه. يعرف أن الآخرة خير وأبقى، ثم تأتي فاتورة أو أزمة أو شهوة فتملأ شاشة وعيه، فيتراجع ما يعرفه إلى الخلف. لا ينكره، لكنه لا يعود حاضراً بما يكفي ليقود سلوكه.

وهنا وظيفة التواصي: أن يعيد الحق من ذاكرة العقل إلى مقدمة القلب.

قد لا يخبرك أخوك بشيء جديد، لكنه يقول الكلمة القديمة في اللحظة التي احتجت إليها. وأحياناً لا تكون قيمة العبارة في جدة معناها، بل في توقيتها. «إن الله معك» حقيقة تعرفها، لكنها حين تُقال لك في ساعة انكسارك تولد فيك كأنك تسمعها أول مرة.

التواصي يحول المجتمع إلى ذاكرة أخلاقية. حين ينسى فرد يتذكر الآخر، وحين تضعف جماعة ينهض فيها من يعيدها إلى أصلها. وبغير هذا التعاهد تتآكل القيم في صمت؛ لا يقرر الناس التخلي عنها صراحةً، لكنهم يكفون عن تذكير بعضهم بها حتى تموت من قلة الاستعمال.

الحق الذي لا يجري على الألسنة قد يبقى مكتوباً في الكتب، لكنه يفقد سلطانه على الحياة. والصبر الذي لا يُتواصى به يتحول إلى بطولة نادرة بدل أن يكون خُلُقاً جماعياً.

أركان النجاة الأربعة

الآن تكتمل خريطة السورة: الإيمان يصلح الداخل.

والعمل الصالح يصلح الحركة.

والتواصي بالحق يصلح المرجع الجماعي.

والتواصي بالصبر يحفظ هذا كله من الانقطاع.

إذا غاب الإيمان صار العمل بلا جذر متصل بالآخرة. وإذا غاب العمل صار الإيمان دعوى محبوسة في الصدر. وإذا غاب الحق تحولت الجماعة إلى تجمع مصالح أو عواطف. وإذا غاب الصبر انهار البناء عند أول محنة.

هذه الأركان ليست مراحل يفرغ الإنسان من واحدة ثم ينتقل إلى غيرها، بل دوائر متداخلة تغذي بعضها بعضًا. الإيمان يلد العمل، والعمل يقوي الإيمان، والحق يوجه كليهما، والصبر يحرس استمرار الجميع.

إنها هندسة شديدة الإيجاز للإنسان الناجي: قلب يعرف، ويد تعمل، ولسان يذكر، وروح تثبت.

ولذلك قيل عن السورة ما يدل على عظيم كفايتها في إقامة الحجة والتنبيه إلى سبيل النجاة؛ فهي على قصرها تحمل منهج حياة كاملاً. لا تدخل في تفاصيل الشرائع، لكنها ترسم الأصول التي تنتظم حولها التفاصيل، وتضع الإنسان أمام سؤاله الأكبر: ماذا يفعل بعمره قبل أن ينقضي؟

من القسم إلى الصبر

بدأت السورة بالعصر، وانتهت بالصبر. وبينهما الإنسان في معركة المعنى.

العصر يقول: الوقت يمضي.

والخسر يقول: المرور وحده يستهلكك.

والإيمان يقول: اربط العابر بالباقي.

والعمل الصالح يقول: حوّل المعنى إلى أثر.

والحق يقول: لا تضل الطريق.

والصبر يقول: لا تتركه قبل النهاية.

إنها حركة متكاملة: من إدراك رأس المال إلى معرفة الخطر، ومن معرفة الخطر إلى اكتشاف النجاة، ومن اكتشافها إلى حراستها فرديًا وجماعيًا.

وكل كلمة في السورة تمسك بطرف من الإنسان. ﴿وَالْعَصْرِ﴾ توقيظ إحساسه بالزمن. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ تضعه شخصيًا تحت الحكم. ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ تهدم أمانه الكاذب. ﴿إِلَّا﴾ تفتح باب الرجاء. ﴿أَمْثُوا﴾ تبني قلبه. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ تحرك جوارحه. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ تبني جماعته. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ تضمن بقاءها على الطريق.

ثلاث آيات، لكنها لا تترك جزءًا من الحياة خارج سؤالها.

حين يصير الإنسان وصيةً حية

أعلى صور التواصي ألا تقول الحق فقط، بل أن تصير حياتك شاهداً عليه. فقد تضعف الكلمات إذا ناقضها صاحبها، ويستطيع موقف صادق واحد أن يشرح ما تعجز عنه خطب طويلة.

الأب لا يوصي أبناءه بالصدق حين يأمرهم به فحسب، بل حين يروونه يعترف بخطئه. والمعلم لا يوصي طلابه بالأمانة في درس عنها فقط، بل حين يعدل بينهم. والكاتب لا يخدم الحق بجمال عبارته وحده، بل باستعداده أن يصحح فكرته إذا ظهر له خطأها.

القدوة هي الحق بعد أن يسكن لحماً ودماً. يراه الناس ممكناً لا نظريةً بعيدة، ويكتشفون أن الاستقامة لا تعني فقدان الإنسانية، بل اكتمالها.

وقد لا ينتبه الإنسان إلى مقدار تأثيره. كلمة يقولها عرضاً قد تثبت قلباً، وموقف يراه طفل قد يظل في ذاكرته عمراً. نحن نتواصى حتى بصمتنا: بطريقة كسبنا، وغضبنا، واختلافنا، وتعاملنا مع الضعيف.

كل حياة تشرح قيماً ما، والسؤال: أي قيم تشرحها حياتنا؟

لا ينجو أحد وحده

قد يظن الإنسان أنه قوي بما يكفي ليحمل نفسه دائماً، لكن الطريق يكشف له وهم الاكتفاء. تمر لحظات تتعب فيها الروح من مقاومتها، ويصبح القرار الصحيح ثقيلاً، ويبدو الباطل قريب الثمرة. عندئذ قد تنتقذه كلمة من أخ، أو دعاء من أم، أو صحبة تذكره بالشخص الذي يريد أن يكونه.

لهذا كانت الصحبة ليست ترفاً، بل جزءاً من بنية النجاة. والرفيق الصالح ليس من يملأ الوقت فقط، بل من يحمي الوقت من أن يضيع، ويزيد حضور الله في قلبك من غير ادعاء، ويجعلك بعد لقائه أقرب إلى حقيقتك.

بعض العلاقات تستنزف العمر لأنها تقوم على الغفلة المشتركة؛ يجتمع أصحابها ليهرب كل منهم من نفسه. وبعضها يبارك العمر؛ لأن القلوب تتبادل فيها معنى يظل حاضراً بعد انفضاض المجلس.

اختر من إذا نسيت ذكرك بلا إذلال، وإذا ضعفت حملك بلا من، وإذا أخطأت ردك بلا فضيحة، وإذا نجحت حرسك من العجب. وكن له كما تحب أن يكون لك؛ فالتواصي عقد متبادل، لا خدمة من طرف واحد.

لا تبحث عن رفيق كامل؛ فلن تجده. ابحث عن صادق يقبل أن تعودا معاً إلى الحق كلما ابتعدتما، وأن يغفر كل منكما ضعف الآخر من غير أن يبرر له الخطأ.

آخر الطريق

سيأتي يوم ينتهي فيه العصر الخاص بكل إنسان. تغيب شمس، وتغلق صحيفته، وينقطع عمله إلا مما أبقى الله أثره. عندئذ لن يسأله أحد كم كان مشغولاً، بل ماذا صنع بانشغاله؛ ولا كم عرف من الأخبار، بل ماذا عرف من الحق؛ ولا كم مرة انتصر على الناس، بل كم مرة انتصر على نفسه.

ستنتطفئ الأسماء التي ركض خلفها، وتتساوى البيوت في ضيق القبور،
وتسقط المقاييس التي صنعت حول بعض الناس هالات ضخمة. ويبقى من
العمر ما اتصل بالله.

تبقى حقيقة آمن بها.

وطاعة أخلص فيها.

وخير أصلحه.

وقلب هداه بكلمة.

وحق ثبت عليه.

وصبر أخفاه عن العيون.

هناك يظهر أن الزمن لم يكن عدوًا، بل مادة الامتحان. وأن الخوف لم يكن
من مرور الأيام، بل من مرورها بلا إيمان. وأن النجاة لم تكن في أن يعيش
الإنسان أكثر، بل في أن يعيش أصدق.

خاتمة الفصل: سورة تحمل عمرًا كاملاً

(وَالْعَصْرِ)...

كأن الله سبحانه يضع يد الوعي على نبض الزمن قبل أن يفلت.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)...

كَانَ الْمَرْأَةُ رُفِعَتْ فَجْأَةً، فَسَقَطَتْ عَنِ الْإِنْسَانِ زِينَةَ الْإِدْعَاءِ، وَرَأَى رَأْسَ مَالِهِ
يَتَنَاقَصُ.

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)...

فَانْفَتَحَ فِي جِدَارِ الْمَصِيرِ بَابٌ، وَدَخَلَ الْقَلْبَ إِلَى وَطَنِ الْمَعْنَى.

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)...

فَلَمْ يَبْقَ الْإِيمَانُ خَاطِرًا جَمِيلًا، بَلْ صَارَ يَدًا تَبْنِي، وَرَحْمَةً تَمْشِي، وَعَدْلًا يَقِفُ،
وَسَجْدَةً تَصِلُ الْأَرْضَ بِالسَّمَاءِ.

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)...

فَخَرَجَ الْمُؤْمِنُ مِنْ نَجَاتِهِ الْخَاصَّةِ، وَحَمَلَ الْمَصْبَاحَ إِلَى الطَّرِيقِ، وَقَبِلَ أَنْ
يُذَكَّرَ وَيُذَكِّرَ، وَأَنْ يَكُونَ تَابِعًا لِلْحَقِيقَةِ لَا مَالِكًا لَهَا.

(وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)...

لَأَنَّ الطَّرِيقَ أَطْوَلَ مِنَ الْحِمَاسِ، وَالْحَقُّ أَثْقَلُ مِنْ أَنْ تَحْمِلَهُ الْعَاطِفَةُ وَحْدَهَا،
وَالْعَمْرُ امْتِحَانٌ وَفَاءٌ لَا لَحْظَةً إِعْجَابٍ.

هَكَذَا تَخْتَصِرُ السُّورَةُ مَأْسَاةَ الْإِنْسَانِ وَعِلَاجَهُ: مَأْسَاتُهُ أَنَّهُ كَائِنٌ مِنْ زَمَنِ،
وَالزَّمَنُ يَنْفَدُ؛ وَعِلَاجُهُ أَنْ يَصِلَ الْفَانِي بِالْبَاقِي. أَنْ يَجْعَلَ الْإِيمَانَ رُوحَ عَمْرِهِ،
وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ جَسَدَهُ، وَالْحَقَّ بَصْرَهُ، وَالصَّبْرَ قَدَمِيَهُ.

وإذا عاش الإنسان بهذه المعاني، لم يعد مرور الأيام سلْبًا محضًا. كلما نقص يوم من دنياه، زاد — بإذن الله — يومٌ مشهود في صحيفته. وكلما اقترب من نهاية العمر، اقترب من الثمرة التي زرع لها.

وحين تأتي اللحظة الأخيرة، لا يكون قد سقط من الزمن إلى العدم، بل خرج من ضيق المهلة إلى سعة الجزاء، ومن عالم كان يتوصى فيه بالحق إلى عالم تظهر فيه الحقيقة كاملة، ومن مقام الصبر إلى مقام السلام.

عندئذ يفهم أن العمر لم يكن ما بقي في يده، بل ما سبق به إلى الله.

وأن الخاسر لم يكن من غادر الدنيا خفيف المتاع، بل من غادرها خفيف الميزان.

وأن الناجي لم يكن من أوقف الشمس، بل من ملأ نهاره بما يضيء له بعد غروبها.

فيا أيها الإنسان، لا تسأل الساعة: كم بقي لي؟

ولكن اسأل قلبك: ماذا صنعتُ بما مضى، وماذا سأودع فيما بقي؟

فالوقت لا يزال ينساب، والسوق لم تُغلق بعد، وباب الاستثناء مفتوح:

إيمانٌ يردّك إلى الله، وعملٌ صالحٌ يثبت صدق العودة.

وحقٌّ يحرس وجهتك.

وصبرٌ يحمل قلبك حتى تصل.

الخاتمة

حين نجد أعمارنا في الجهة الأخرى

ليس الزمن شيئاً يقع خارج الإنسان. إنه النهر الذي يجري في جسده، واليد الخفية التي تنقل ملامحه من طور إلى طور، والمسافة التي تقربه في كل لحظة من اللقاء الأخير. ونحن، وإن اعتدنا أن نقول إن الأيام تمر بنا، لسنا واقفين على صفتها؛ إنها تمر فينا أيضاً، تكتب آثارها في الوجه والقلب والذاكرة، وتأخذ من قوتنا بقدر ما تمنحنا من فرصة.

لقد بدأت رحلتنا أمام قسم يهزّ الغفلة: ﴿وَالْعَصْرِ﴾.

ولم يكن المقصود أن نعرف معنى الزمن فحسب، بل أن نراه. أن نشعر باللحظة وهي تدخل أيدينا ثم تخرج منها، وأن ندرك أن العمر لا يُمنح لنا كتلة واحدة نضعها في خزانة، بل يصل إلينا قطرات؛ كلما استقبلنا واحدة غابت التي قبلها.

ومأساة الإنسان ليست أن وقته ينفد؛ فهذا قانون يشترك فيه الجميع، ولا يستطيع أحد إيقافه. مأساته أن ينفد الوقت قبل أن يولد فيه المعنى. أن ينقضي العمر وهو منشغل بتهيئة الحياة التي لم يبدأ عيشها، وأن يظل يؤجل عودته إلى نفسه وإلى الله حتى يأتيه الموعد الذي لا يقبل التأجيل.

وقد كشفت السورة هذه المأساة في حكم لا يجامل الإنسان: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾.

إنه في الخسر، لا لأن الدنيا لم تعطه كل ما اشتهى، بل لأنه قد يُنْفِق نفسه في طلب ما لا يبقى. الخسران الأعْمَق ليس أن تخرج الأشياء من يدك؛ فالأشياء كلها ستخرج منها يوماً، وإنما أن تخرج أنت من يد نفسك، فلا تعود تعرف من تكون، ولا لماذا تعيش، ولا إلى أين تمضي.

قد يمتلئ بيت الإنسان وتفرغ روحه. وقد يتسع اسمه ويضيق صدره. وقد يعرفه البعيد والقريب، بينما يمضي هو غريباً عن حقيقته. تلك خسارات لا تسمع لها ضجيجاً؛ إنها تقع في الباطن، وتختبئ وراء مظاهر النجاح.

غير أن القرآن لم يفتح أعيننا على الخسر كي يتركنا في وحشته. جاءت ﴿الَّا﴾ رحمةً في قلب الحكم، وباباً في جدار المصير. فليس الإنسان محكوماً بضياع محتوم؛ يستطيع — بهداية الله — أن يغير معنى الزمن، وإن لم يستطع وقف حركته.

يستطيع أن يجعل اللحظة العابرة تحمل أثراً باقياً.

ويستطيع أن يحول نقص العمر إلى زيادة في الميزان.

ويستطيع أن يغادر الدنيا، ثم يجد أمامه ما ظنه قد مضى.

الإيمان هو الانقلاب الأول في هذه الرحلة؛ به يعرف الإنسان أن حياته ليست حادثَةً تائِهَةً في كون بلا قصد، وأنه ليس كتلةً من الرغبات محكومةً بالفناء، بل عبد لله، مخلوق بعلم، ومكلف بحكمة، ومدعو إلى لقاء.

عندئذ لا تعود الآخرة فكرةً مؤجلةً في آخر الوعي، بل تصبح أفقاً يعيد ترتيب الحاضر كله. يتغير معنى النجاح، فلا يعود في كثرة ما يملكه المرء، بل في

سلامة ما يلقي الله به. ويتغير معنى الفقد؛ فلا يكون كل منع هزيمة، ولا كل عطاء ربحًا. وتتغير صلة الإنسان بالمستقبل، فلا يحاول أن يحمل الغيب على كتفيه، بل يعمل في المساحة التي كُلف بها ويسلم ما وراءها إلى رب العالمين.

لكن الإيمان لا يبقى نورًا محبوسًا في الداخل. إن كان صادقًا بحث عن جسد يتحرك به، وكان جسده هو العمل الصالح. فكل حقيقة لا تصير خلقًا وموقفًا تبقى ناقصة الأثر. ليس المهم أن يحمل الإنسان تصورًا جميلًا عن الرحمة، بل أن يصير رحيماً حين تكون الرحمة مكلفة. ولا أن يتحدث عن العدل، بل أن يعدل حين يكون الهوى في الجهة الأخرى.

بالعمل الصالح يخرج الإيمان من عالم الدعوى إلى عالم الشهادة. يصبح الوقت المنقضي صلاةً، أو معرفةً، أو إحسانًا، أو كلمة حق، أو إصلاحًا لا يراه الناس ويراه الله. وهنا يتعلم الإنسان أن الأعمال الصغيرة ليست صغيرة إذا اتصلت بالنية الصادقة؛ فقطرة الخير قد تقع في قلب إنسان فتتسع دوائرها بعد رحيل صاحبها.

ليس العمر بعدد الأحداث العظيمة. قد تكون حياة كاملة محفوظة في أمانات يومية متواضعة: وعد لم يُخلف، ومال لم تمتد إليه يد، ودمعة مُسحت، وغضب كُظم، وحق أُدي إلى صاحبه. تلك الأعمال لا تصنع دائمًا سيرة يتحدث بها الناس، لكنها تصنع إنسانًا يلقي الله بقلب أقل خرابًا.

ثم علمتنا السورة أن صلاح الإنسان لا يكتمل إذا أغلق عليه بابه. فالنجاة ليست أن تبني لنفسك جزيرةً ظاهرةً وسط بحر من الغرق، ثم لا يعينيك من

يبتلعه الموج. الإيمان الذي لا يحمل همّ غيره يفقد شيئاً من رحمته، والعمل الذي لا يمتد أثره إلى الجماعة يظل معرضاً لأن تحاصره بيئة الخسران.

﴿وَتَوَاصَوْا﴾...

بهذا الفعل انتقلت السورة من «أنا» إلى «نحن»، ومن صلاح الضمير إلى أمانة المجتمع. لا أحد يملك من القوة ما يغنيه عن التذكير، ولا أحد يبلغ من العلم ما يجعله فوق النصيحة. نحن نحمل بعضنا بعضاً في الطريق؛ يستعير الضعيف يقين القوي ساعةً، ثم تأتي على القوي ساعة يستند فيها إلى كلمة من كان ضعيفاً بالأمس.

ومن جمال التواصي أنه لا يقسم الناس إلى كاملين وناقصين، بل يجعلهم جميعاً تحت سلطان الحق. الناصح محتاج إلى النصيحة، والمعلم لا يتوقف عن التعلم، ومن ردّ أخاه اليوم قد يحتاج غداً إلى من يرده. وبذلك لا يتحول الدين إلى سلطة بشر على بشر، بل تبقى العبودية لله هي المقام الذي يلتقي عنده الجميع.

والحق الذي يتواصون به ليس شعاراً حزبياً، ولا رأياً صنعتة المصلحة، ولا غضباً لبس ثوب المبدأ؛ إنه ميزان يعلو على الأشخاص والجماعات. لا يتبدل بتبدل مواقفنا، ولا يصبح باطلاً لأن خصماً نطق به، ولا يصير الخطأ صواباً لأن صديقاً ارتكبه.

أصعب الوفاء للحق أن نقبله حين يأتي ضد رغبتنا، وأن نعترف به حين يهدم صورةً أحببناها عن أنفسنا. فما دام الحق سلاحاً في أيدينا على الآخرين فهو سهل، وإنما يبدأ صدقه حين يصبح مرآةً تُجبر على رؤية عيوبنا فيها.

ومع ذلك، لا يكفي وضوح الحق؛ فالطريق بين معرفته والوفاء له مملوء بالكلفة. ولهذا تكرر الفعل في ختام السورة: (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ).

إن الحق يعرفه المرء في لحظة، لكنه قد يحتاج عمرًا ليثبت عليه. وربما لم تكن المشكلة في غموض الطريق، بل في طول المسافة. تبدأ النفس متحمسة، ثم تتعب حين تتأخر الثمرة، أو حين يصبح ثمن الموقف أكبر مما توقعت.

هنا يكون الصبر قوة المعنى على الاستمرار. ليس توقفًا عن الفعل، بل رفضًا لبيع الوجهة بسبب مشقة الطريق. وليس إنكارًا للألم، بل منعًا للألم من أن يقود الروح بعيدًا عن الله. وليس رضا بالظلم، بل ثباتًا على مقاومته من غير أن يتحول المظلوم إلى نسخة أخرى من ظالمه.

الصبر هو أن يظل الحق حقًا في عينك حين يصبح مكلفًا، وأن يظل الله غايتك حين تتأخر النتائج، وأن تبقى إنسانًا رحيماً بعد أن حاولت القسوة أن تعلمك لغتها.

وما أحوجنا إلى هذا الصبر في زمن يريد كل شيء سريعًا. يريد ثمرة بلا غرس، وعلماً بلا مكابدة، ونهضة بلا بناء للإنسان، وعلاقة عميقة بلا زمن من الوفاء. لكن الأرواح لا تنضج على عجل، والحقائق الكبرى لا تثبت في النفس بخطاب عابر. إنها تحتاج إلى تكرار ومجاهدة وسقوط وقيام، حتى ينتقل الإيمان من الفكرة إلى الطبع.

لقد اختصرت سورة العصر الطريق كله، لكنها لم تقل إن السير سهل. دللتنا على النجاة، ثم وضعت الصبر في آخرها؛ لتخبرنا أن من عرف الطريق لم

يصل بعد، وأن الوصول يحتاج إلى قلب لا يترك الحق حين تنطفئ حرارة البداية.

وعند نهاية هذه الرحلة يظهر أن السورة لا تعلمنا إدارة الوقت، بل تعلمنا إدارة المصير. فالعمر ليس وعاءً نملؤه بأي حركة، والنجاح ليس أن ننجز أكثر في الاتجاه نفسه، بل أن نصحح الجهة قبل أن نزيد السرعة.

رب إنسان امتلأ يومه بالأعمال، ولم يدخل الأبد منه شيء.

ورب إنسان كان عمله خفيًا قليلًا في أعين الناس، لكنه وضع في كل يوم لبنَةً في دار البقاء.

الفرق ليس في زحام الحياة، بل في وجهتها.

وسيأتي يوم نرى فيه أعمارنا مجتمعةً بعد أن عشناها متفرقة. الأيام التي نسيناها، والكلمات التي تجاوزناها، والمواقف التي ظننا أنها انطفأت؛ كلها ستظهر في كتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها. هناك يكتشف الإنسان أن الزمن لم يبتلع أعماله، بل حملها إلى الموعد.

ما أروع أن يرى المؤمن ساعات كان يظنها ذهبت، فإذا هي تنتظره في صورة نور وثواب! يجد سجدةً خفيةً في ليلة قديمة، وصدقةً نسيها، وكلمةً ثبت بها قلبًا، وموقفًا صبر فيه عن معصية لم يعلم بها أحد. لقد انقضى وقت العمل، لكن العمل لم ينقض.

وهذا هو الانتصار الحقيقي على الزمن: ألا تمنعه من المرور، بل ألا تدعه يمر فارغًا.

لسنا مطالبين بأن نصنع في كل يوم حدثًا عظيمًا، بل أن نمنح أيماننا جهةً عظيمة. قد يكون الإنجاز صغيرًا، لكن إذا اتجه إلى الله اتسع بمعناه. وقد تتعثر الخطوات، لكن ما دامت القبلية صحيحة والعودة صادقة، فلا تزال الرحلة في طريق النجاة.

وبعد هذه الرحلة لا يبقى السؤال: كم مضى من العمر؟

فما مضى قد طوي، ولا يفتحه الندم المجرد.

ولا: كم بقي؟

فذلك غيب استأثر الله بعلمه.

إنما السؤال الذي نملكه: ماذا نفعل بهذه اللحظة التي لا تزال في أيدينا؟

هل نجعلها امتدادًا لخسران اعتدناه، أم بدايةً للاستثناء؟

كل إنسان يقف الآن في مكان ما من السورة: قد يكون غافلًا عن العصر، أو مستغرقًا في الخسر، أو واقفًا عند عتبة الإيمان، أو مجاهدًا ليحول إيمانه إلى عمل، أو حاملاً للحق، أو صابرًا على الطريق.

ولا يملك أحد أن يضع نفسه في الاستثناء بمجرد الأمان. الاستثناء ليس لقبًا، بل حياة. وليس انتماءً يُدعى، بل حقائق تُبنى كل يوم: إيمان يتجدد، وعمل يصلح، وحق يُتعاهد، وصبر لا ينقطع.

لقد انتهت كلمات هذا الكتاب، لكن سؤال السورة لا ينتهي بانتهاء القراءة. سيخرج معنا إلى الأيام القادمة، ويقف عند أبواب اختياراتنا، ويهمس في لحظات الغفلة:

أي جزء من عمرك تنفق الآن؟

وفي أي شيء؟

وإلى أي مصير تحمله؟

إن سورة العصر لا تريد منا أن نحزن لأن الوقت يمر، بل أن نستيقظ لأن الباب لا يزال مفتوحًا. وما دامت الروح في الجسد، فإن اللحظة الحاضرة قادرة — برحمة الله — على أن تكون نقطة تحول. لا يلزم أن يعود الماضي كي ننجو منه؛ يكفي أن نتوب، وأن نمنع الأمس من أن يكرر نفسه في الغد.

والذين ربحوا أعمارهم لم يكونوا بشرًا من مادة أخرى؛ كانت لهم شهواتهم وآلامهم وضعفهم، لكنهم كلما سقطوا عادوا، وكلما نسوا تواصلوا، وكلما ثقل عليهم الطريق تصابروا. لم ينتصروا على الزمن بإيقافه، بل بملئه بما يصل إلى الله.

وها هو العصر ينساب كما كان ينساب قبل أن نقرأ السورة.

غير أن القارئ لم يعد هو الإنسان نفسه قبل قراءتها؛ فقد عرف الآن أن الذي يمر ليس الوقت وحده، بل جزء منه، وأن كل لحظة تحمل إمكان خسارة وإمكان نجاة.

فليكن ما بقي من العمر جوابنا عن القسم.

وليكن إيماننا جوابًا عن الخسر.

وليكن عملنا برهانًا على الإيمان.

وليكن تواصلنا بالحق عهدًا ألا نترك المعنى يموت بيننا.

وليكن تواصلنا بالصبر يدًا تمتد من قلب إلى قلب حتى نبلغ نهاية الطريق.

وحين تغيب شمس العمر، ويخرج الإنسان من عالم الساعات، نسأل الله ألا يجد أيامه قد انطفأت، بل أن يجدها قد سبقته إليه نورًا؛ وأن يدرك عندها أن شيئًا من عمره لم يضع ما دام قد أودعه عند من لا تضيع عنده الودائع.

فالعمر الذي نعطيه للدنيا وحدها تأكله الدنيا.

والعمر الذي نعطيه لله تعيده إلينا الآخرة حياة لا تنتضي.

تم بحمد الله